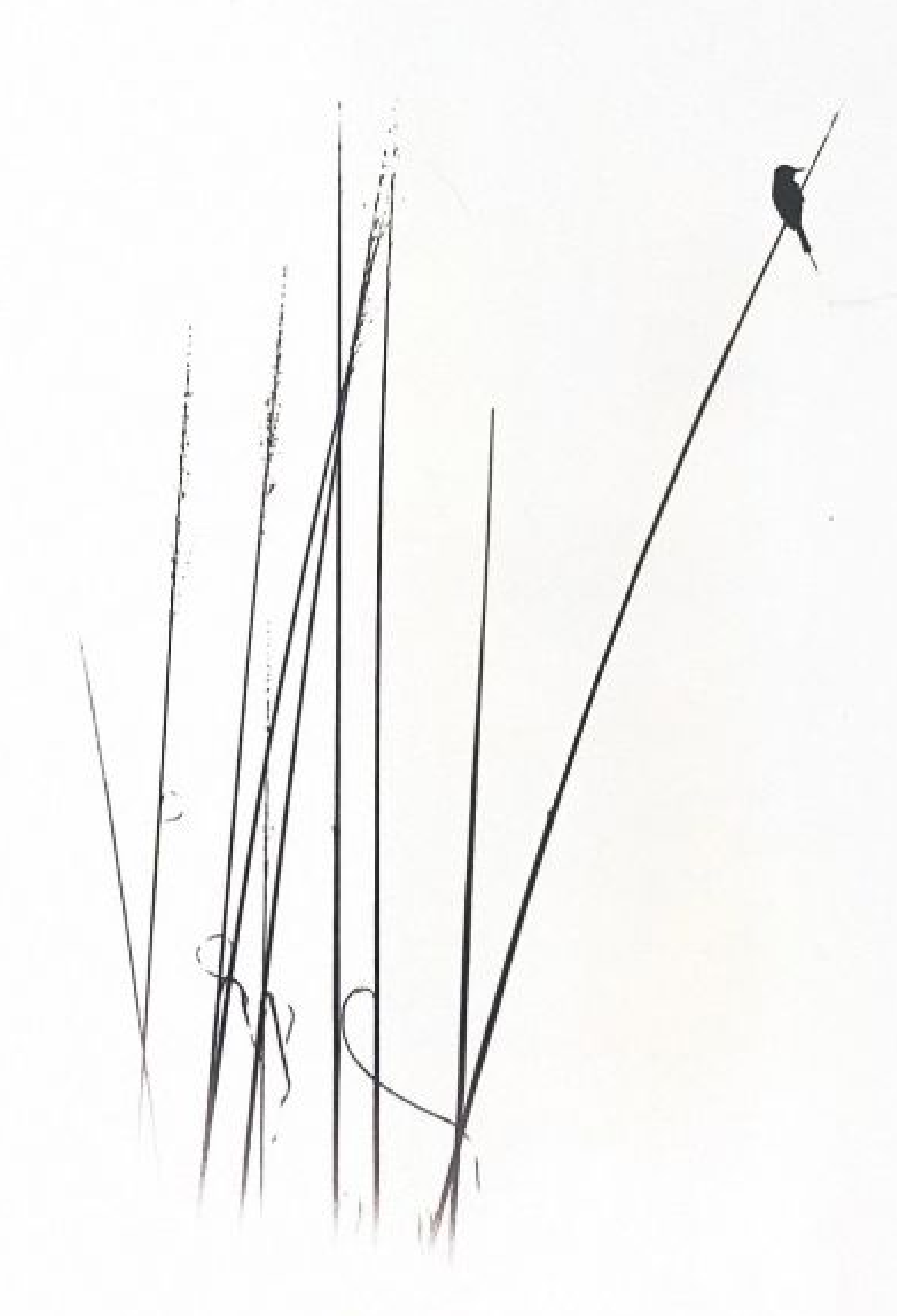
عين تراقب العصفور

في أدبيّاتِ الفَقْدِ والحِدادِ والحمْدِ



ملاك الجهني

عينٌ تراقب العُصفور

ⓒ دار أدب للنشر والتوزيع، ١٤٤٥ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الجهني، ملاك.

عينٌ تراقب العُصفور. / ملاك الجهني. - ط١. - الرياض، ١٤٤٥هـ

٢٠٠ص؛ المقاس ١٤ × ٢١ سم

ردمك: ٦-٥٢-٨٤٠٦-٦٠٣-٩٧٨

١- الفلسفة أ. العنوان

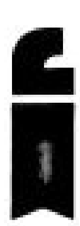
ديوي ١٠٠ ١٤٤٥/١١٧٩

رقم الإيداع: ١٤٤٥/١١٧٩

ردمك: ٦-٥٢-٨٤٠٦-٦٠٣-٩٧٨

الآراء الواردة في الكتاب
لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار

الطبعة الأولى
١٤٤٥هـ = ٢٠٢٣م



info@adab.com adab.com @adab

إليــــــه ..

مرة أخرى ..

ملاك

فهرس

شكر وعرفان

أود التقدم بالشكر الجزيل إلى كل من أسهم في خروج هذا الكتاب إلى الضوء،

وأخص بالشكر الأديب الأستاذ فهد المطيري

لمراجعته مخطوطة الكتاب وسخائه منقطع النظير.

كما أشكر الكريم

الدكتور عبد الله السفياني

ودار أدب

لما قدموه من عون انتهى بوصول الكتاب إلى أيدي القراء.

ملاك

شُرفة ..

لماذا أكتب؟

إن للكتابة نفسها قيمتها؛
فهي تهدئني
وتقع بردًا وسلامًا على قلبي
وتوقظ عاداتي القديمة، عادات الكاتب
وتوجِّه ذكرياتي وأحلامي
نحو العمل، نحو الفعل.

دوستويفسكي

أكتب هذه الصفحات لحاجتي للاستشفاء بالكتابة، ووفاء لذكرى فقيدي، وتسجيلاً لتجربة امرأة مثلي من الطبقة الوسطى، كيف دهسها الفقد، وكيف نهضت من حضيضه، وسارت في دروب التعافي من أوجاعه.

أكتبه للموجوعات والمكلومات مثيلاتي، ممن يسندن رؤوسهن إلى الفراغ طلبًا للنسيان، فالأُنس بالشبيه في الحزن أنسٌ وعزاء.

للسلوى أكتب، ولاستنشاق عبير الماضي أكتب، ولتحدي صمت النساء المزمن أكتب.

أملأ رئتيّ بالهواء النقي كلما سطرتُ كلمة في صفحاتي، وتصطكُ ضلوعي كلما ضاقت قدرتي عن البوح والإفصاح؛ ففي داخل كل محزون حاجتان تصطرعان، حاجة للبوح، للتكشف، للتجلي، وحاجة للانزواء والكتمان والانمحاء.. نعم الانمحاء! «فزمن الكتابة

زمن القتل؛ زمن الانتحار لمـّا أباح العاشقُ دمهُ بالبوح»[1].

شرعتُ في كتابة هذا الكتاب بُعيد السنة الأولى لفقد زوجي المهندس إبراهيم شتيوي الجهني (١٩٧١-٢٠٢٠م) رحمه الله، بعد ستة وعشرين عامًا من زواجنا، وعنونتُ للملف الذي خصصته له بـ(مسودة أفكار متناثرة حول الفقد وإبراهيم) وكنت أميل في هذا اللون من الكتابة إلى الأسلوب المرسَل لفوريته وصدقه، وتحاشيت السقوط في فخ الكتابة الأكاديمية بنسيجها المعقد، لكنني لم أنجح بتاتًا في التخلص من الباحثة الناقدة القابعة داخلي، فتقسيم الفصول والإحالة على الصفحات التي قرأت، ومناقشة بعض أفكار الكاتبات ورؤاهن الكلية للوجود، أو حتى تحويل التساؤلات العادية إلى فرضيات والتعامل معها على هذا الأساس، كل هذه الأمور كانت تصبغ كتابتي بتلقائية، لذا تركتها تجري على سجيتها هي أيضًا، وما كنت لأهرب من تنميط لأقع في تنميط آخر، فالتلقائية لا تعني السطحية، ولا التضحية بطريقتنا في التفكير طلبًا للتلبس بالأسلوب العفوي.

ولم أكتب في البداية سوى ملحوظات يسيرة مبعثرة، وأخرى قصيرة بالغة التكثيف عن شجن الفقد ووحشته واختلاجاته؛ فلم تكن لدي خطة مسبقة للكتاب، ولا تنظيم معين أسير عليه، وقد نظَّم الكتاب نفسه بنفسه لاحقًا عندما لاحظت أن ما كتبته قابلٌ للتصنيف تحت قسمة رباعية، أما في البداية فقد كتبت نُتفًا هنا وهناك أشبه بالجداريات، لكنني لم أتمكن مطلقًا من الكتابة عن سردية فقده، كان الأمر أعقد مما ظننت، أنا التي تعودت الكتابة لصفحات دون أن أتعثر بكلمة أو فكرة، لقد شق علي

(١) قراءة تحليلة لرواية رسالة من مجهولة، ستيفان زفايغ، كتب القراء العادل خضر وألحقت بالترجمة المنشورة لها، ص٧٢.

مسَّ مقاتلي ببعث ذكرى تلك الفاجعة مجددًا، لكنني تحاملت على وجعي وكتبت، وكنت أعلم أنها الوسيلة المثلى للتشافي، فقد اعتدت منذ صباي على الكتابة إذا ما وقعت فريسة لألم أو قلق، وكانت الكتابة تجلي المشهد أمامي، وتكشف لي ما يعتريني مما يصعب عليَّ تفسيره أو يحول دون فهمي لطبيعة الموقف الذي أواجهه، كانت الكتابة تعالج فوضاي، ترتبني، وتضع عني أثقالاً كادت أن تقصم ظهري، كانت ببساطة تريحني. لكن عزمي خذلني عندما بدأت الكتابة، فكنت أكتب عدة سطور فتتيبس أصابعي وأختنق بكلماتي، ولم يتجاوز ما كتبته في السنة الأولى لفقده رحمه الله أربع صفحات. لكنها كانت الصفحات الأكثر إيلامًا، الصفحات التي ضمَّت الجزء الأوجع من سردية الفقد. كتبتها وسقطتُ بعدها واهنة، فقد امتصَّ سردها طاقتي على المواصلة، وأمسكتُ بعدها عن الكتابة زمنًا رأفة بقلبي.

وبعد مضي عامين من ذلك الوقت عدت إلى الكتابة مرة أخرى، فقد بقيتُ عالقة في سردية لم تكتمل، ومقيَّدة بذكريات تستبقيني في الماضي وتشدني إليه بكل ما في التذكر من قوة، فظللت سجينته ولم أغادره للحظة، ولم يك هناك بُد من تحريره وتحرير نفسي من قبضته، ورغم أنني حاولت الفرار من أسْره تارات عديدة فقد أدركت أخيرًا أنني لن أتمكن من مغادرته كليًا، وسيبقى جزء مني مشدودًا إليه ما بقي لي من عمر، وبقيت على قيْد التذكر.

وكان عليَّ فقط أن أنتظر لبعض الوقت لأكتب عنه، وكما تقول إيزابيل الليندي: «من الصعب أن تكتب وأنت في منتصف العاصفة، لذا من الأفضل أن تعيد القصة من جديد بعدما تمر الرياح العنيفة، وبإمكانك أن تخرج

ببعض المعاني من الحطام. الصراع، والفقد، والاضطراب، والذاكرة، هي المواد الخام لكتاباتي»[1]. ومثل إيزابيل كانت الذاكرة وما يختلج فيها من أحداث، وضحكات، وتحديات، وانكسارات، وانتصارات، وهزائم، هي المواد الخام لكتاباتي ومن ورائها النظرة إلى العالم، وكما يقول دان وود: «كل شخص لديه أنطولوجيا مضمرة توجهه في هذا العالم»[2].

ولا يسبقن لظنك أيها القارئ أني وزوجي شخصان خارقان للعادة، أو مذهلا المزايا، أو باهرا الجمال، أو منزهان عن العيوب والخطايا، أو أننا كنا نعيش حياة تتسم بالاستثارة الوجدانية الدائمة، وتخلو من المكدرات والخلاف. فما نحن إلا شخصين عاديين لو صادفتهما لما ميزت وجهيهما من بين الوجوه، لكنه الحب والاحترام والإيثار المتبادل، ذاك ما كان يلون حياتنا ويمنحها القدرة على الصمود والتماسك أمام عوادي الزمن وقتلةِ الحب، من الرتابة، والملل، وطول العهد.

ثم إن الحب إذا اجتاح قلبًا وتمكن منه، وهبَ صاحبه عينًا ليست من عيون الآخرين في شيء، فالمحب يسمو بمحبوبه حتى ليُخيَّل إلى غيره أن لا شبيه لمحبوبه في الحسن ظاهرًا وباطنًا، والحق أن المرء إذا أحب لم يعد يخضع للمعايير السائدة، إذ يغدو من يحبه المعيار ذاته، وكما قال الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان لبثينة محبوبة شاعرها جميل، حين دخلت على ابن مروان، فقال: (يا بثينة ما أرى شيئًا مما يقول جميل، فقالت: يا أمير المؤمنين، إنه كان يرنو إلي بعينين ليستا في رأسك!)[3].

---

(١) شهرزاد أمريكا اللاتينية: نزهة في أهم اعترافات إيزابيل الليندي، إعداد وترجمة: عبد الله الزماي، ص٤٠.

(2) See: Epistemic Decolonization, p59-65.

(٣) المستطرف في كل فن مستظرف، شهاب الدين الأبشيهي، ج١/ ص٤٠٦.

وربما يواسي امرأة مهجورة أو يُشبع غرور بعض الزوجات أن تبدو أمام الآخرين في صورة المحبوبة الفاتنة أو المعشوقة الأبدية في عين زوجها، وأن تُباهي بهذه الصورة المتألقة والساطعة كنجمة على مدى سنوات لم يسلبها فيها الزمن شيئًا من بريقها، لكن هذا لا ينطبق على كاتبة هذه السطور، فمع إبراهيم لم يكن لي أن أشعر بالفاقة، ولا قلق الانصراف والتخلي، لأعوض عن ذلك الافتقار والمخاوف بسلوك استعراضي يائس بعد رحيله، على طريقة ثري أفلس فأخذ يواسي نفسه بالتباهي بثرائه الزائل، فعلى خلاف هذا، إن ساغ لي أن أقيّم نفسي، فأعترف أنني إنسانة لا تتميز عن غيرها بكبير فارق، وإنما هي خصوبة قلبه السخي ما جعلت من خصالي مناقب، ومن أفعالي صنائع بالغة الحسن، وأتاحت لحبي أن ينمو ويترعرع، ويخضر ويزهر، ويتشعب ويمتد، حتى يبلغ عنان السماء.

وقد جرت عادة الزوجات أن يكتبن عن أزواج ذوي شخصيات عامة، ساسة، أو أدباء، أو فلاسفة، أو مفكرين...، فما الذي يميز فقيدي لأكتب عنه، والواقع أنني لا أرمي لكتابة سيرة غيرية، ولا مذكرات شخصية عن الفقد تحتفي بالجانب العاطفي للفقد وتختزله فيه وحده لا غير؛ فالفقد بالنسبة لي تجربة إنسانية مركبة ومتعددة الأبعاد، وكل ما أحاوله هنا هو رصد وتحليل تجربتي على ضوء المكانة التي احتلها فقيدي، والأثر الذي تركه في القلب والروح والعقل.

لذا فهذه الصفحات ليست رثائية محضة، وليست ذاتية مجردة، وليست موضوعية خالصة، بل فيها من هذا وذاك.. في هذه الصفحات خيوط من نور، ولفيف من أحاديث الوَجْد والفقد والحداد والحمد، تشتبك ببعضها البعض، ويظهر كل منها في نسيج الكتابة من أوله وحتى آخره.

وأما عنوان الكتاب فمستلهم من الكلمة التي ختمَت بها جوان ديديون كتابها حول تجربة الفقد، مع اختلاف يسير لكنه فارق ومؤثر؛ ذلك أن جوان كانت تنفي وجود عينٍ تراقب العصفور، وتنفي معها العناية الإلهية إجمالاً وبمن فقد عزيزًا بصورة خاصة، وعلى العكس من ذلك، لم يغب عني للحظة، بل ولا لثانية، ولا أقل، أن هناك عين تراقب العصفور رغم مرارة المعاناة، كما سيتبين في سرد تجربتي في الفقد، وتحليلها، وتعليقاتي الحوارية على كتابات الزوجات بعد الفقد، وكما في آخر موضوعات الكتاب الذي يدور حول سؤال المعنى في حضرة الفقد.

ملاك

محرم ١٤٤٥هـ - يوليو ٢٠٢٣

قبل الفقد

الجسد المسكون بالموت

إننا نموتُ بشكل متجزئ
يموتُ الفرح، تموتُ الذاكرة،
تنحني الأشواق، نشيخ بسرعة
وبشكل مذهل،
شيء ما في داخلنا يتآكل يوميًا
ولا نشعر.

واسيني الأعرج

هكذا نحن، نتجاوب بطرق متفاوتة مع حُرقة الحزن، وتختلف قابليتنا للاكتواء به ودرجة هذا الاكتواء، وصحيح أننا معرضون جميعًا لبواعث الحزن لكن استعداداتنا وخبراتنا السابقة تؤثر عمقًا وسعةً وزمنًا في تعاملنا مع آلامه.

وكانت قابليتي للحزن كبيرة جدًا، فقد فقدتُ جنيني الأول في السنة الأولى من زواجي، بعد ثلاثة أشهر من الحمل وأنا في الثامنة عشرة من عمري، ثم حملت مرة أخرى وتوفيت ابنتي قبل ولادتها بأيام، وكنت حينها في التاسعة عشرة من عمري، وفقدت بعدها حملين آخرين لثلاثة أشهر، وثلاثة أشهر ونصف من بدء الحمل، ومنذ ذلك الحين سكنني شعور موحش بأنني أرض يباب لا مكان للحياة فيها، ومجرد تصور أن الموت زارني ذات ليلة وأن ابنتي قُبضت في بطني بعد تسعة أشهر من حملي بها ملأني بالخوف.

كنتُ جسدًا عبره الموت مرارًا، جسدًا غير قابل لإنبات الأحياء،

وجهلي بأسباب فقد أجنتي عزز لدي هذا الشعور الموحش، فلأسباب غير معروفة فقدتهم، وولِدت ابنتي ميتة لأنها كانت بلا عظام جمجمة، وجاءت كذلك لسبب أجهله أيضًا، وكنت أترقب ولادتها في مطلع شهر شوال، وكان عليَّ أن ابتاع ثيابا للعيد الذي افترضت أنني سأستقبله وأنا حامل ففعلت وأحسنت الاستعداد له، لكن القدر لم يمهلني حتى ترائي الهلال، وفي نهار السادس والعشرين من رمضان استيقظت على ألم شديد في جنبي، وذهب بي زوجي إلى المستشفى، وقرر الأطباء إعطائي محرضًا للولادة دون أن يذكروا السبب، وكنت قبلها بأيام قليلة قد زرت أهلي وحثتني أمي على زيارة الطبيب في مستوصف قوى الأمن القريب من منزلهم، فتعجبت لطلبها وذكَّرتها بأنني أراجع طبيبتي الخاصة بانتظام وكل شيء على ما يرام، لكنها كشفت لي عن قلقها لكبر حجم بطني بالنسبة لفتاة في مثل عمري، وألحَّت أمي راجية مني الذهاب معها إلى المستوصف للاطمئنان لا غير، فلبيت طلبها وذهبت، وفحصني الطبيب، وكانت أمي تتحدث إليه وأنا أجيب على أسئلته، وبعد أن أتم الفحص بالأشعة الصوتية قال لي وأنا على سرير الفحص: «مثلما قالوا لكم»! فتعجبتُ أنا وأمي، وسألناه في وقت واحد مدهوشتين: ماذا تعني بمثل ما قالوا لكم؟! قال: البنت بلا عظام جمجمة! وحين نطق بكلمة (بنت) رقَّ قلبي وشعرت بحنان دافق يفيض ويغمرني، فقد كنت أرفض معرفة جنس الجنين طيلة أشهر حملي لئلا أفسد مفاجأة قدومه، وسألت الطبيب بسذاجة؟ هل ستعيش؟ فأجابني بنبرة المتذمر: «لا طبعًا، وإن ولدت حية فلحظات وتموت»!

كان الطبيب يتحدث إلينا بنفاد صبر، وبقسوة لم أصادفها قبلاً، وكأنه كان غاضبًا لأمر ما سبق دخولنا عليه، أو ظنَّ أننا نعلم مسبقًا بوضع الجنين

وجئنا لامتحان مهاراته فحسب، ورغم قسوته تلك فقد ألهمني ربي لحظتها قول: «الحمدلله». وأقول ألهمني لأنني لم أدرِ حتى اللحظة كيف حمدت الله على مصاب صادم كهذا! أعني أنني لم أختبر موقفًا كهذا من قبل، ولم أستعد له، ولم أكن متشبعة عمليًا بفكرة الإيمان بالقضاء والقدر بعد، وكنت مرهفة ومحبة للأطفال حتى أنني أضفت لقائمة طلباتي من إحدى مجلات الأزياء اللندنية في فترة الخطبة بعض المستلزمات والإكسسوارات الخاصة بالمواليد، ووبختني أمي وقتها.

وعودًا لذلك المشهد في عيادة الطبيب الذي غرز الحزن في أعماقي، أخذت أمي تستفسر من الطبيب عن كيفية التعامل مع حالتي التي رشق خبرها كزيت ساخن في وجوهنا، فأجابها أن لابد من إجراء عملية وعدم الاستمرار في الحمل وانتظار حدوث مضاعفات، فرفضتُ الفكرة تمامًا، فلا يمكن أن أتخلى عن ابنتي أو أجازف بأي إجراء طلبًا لسلامتي على حسابها، وإن كانت سترحل في آخر الأمر فلترحل من تلقاء نفسها وفي الوقت المقدر لها، لا بيدي، لكن الخيار لم يكن لي، إذ لم ألبث أيامًا قلائل إلا وهجمت عليَّ الأوجاع بغتة، فذهبت إلى المستشفى وكان ما كان، وأنجبتها ليلة السابع والعشرين من رمضان في فصل شتاء قارس البرودة، وزمجرة الرعد تلك الليلة تخترق زجاج النوافذ، والريح تضرب الأشجار والأحجار، والسماء تمطر بشدة في الخارج، وأنا ما بين آلام طلق أختبرها لأول مرة في حياتي ودعوات يلهج بها لساني أن يكون كل ما ذكره الطبيب عن ابنتي تشخيصًا خاطئًا وأن يسلمها الله لي، ولم أكن أعلم لحظة استسلامي لآلام الولادة وآمالي الكبيرة باحتضان مولودتي أنها كانت قد توفيت في رحمي منذ يومين؛ إذ توسلت أمي إلى الأطباء الذين اجتمعوا حولي وقتها ألا يخبروني بموتها.

والأوجع من هذا كله أنني حين فتحت عيني بعد خروجي من غرفة الولادة وسألتُ عن مولودتي صارحتني أمي بالحقيقة، فرجوتها بصوت أوهنه الألم والضراعة: أريد أن أراها وألمسها وأشمها، فأخبرتني أمي أنها دُفنت، وحدث كل هذا بترتيب بين أهلي وزوجي خوفًا علي من حزن يرافقني بعد الولادة وعزوفي عن الإنجاب إن أنا رأيتها، ولما زارني أبي وزوجي في المستشفى وأخبرني أبي أنه سماها (رحمة) رقّ قلبي رقة على رقته السابقة، وهالني أنهم حرموني حقًا ما كان لهم أن يحرمونيه بحال، فبكيت.. وبكيت طيلة الأيام التي تلت ولادتي، وكنت أبكي ووجهي للجدار، ولا أسمح لأحد أن يسمع نحيبي أو يبصر وجعي لشعوري بانتهاك حقي برؤيتها، فوحدي من سُلبت حياة كانت تنمو بين جنبيها، ووحدي من كانت تأنس بحركة جنينها وتهمس له وتتخيله وتحصي الأيام المتبقية على قدومه للدنيا، ووحدي من ذاقت فقد ذلك كله دفعة واحدة، لتستلقي على سرير ولادة بلا مهد بجانبها، ولا رضيع يجاذبها السهر.. ووحدي فقط من كان عليها معالجة آلام احتقان الحليب في صدرها، حليب مولودتها الميتة!

كنت أواري أوجاعي بالاستدارة ناحية الجدار وأستخفي بدموعي شاعرة بخذلان من غيبوا عني وجه طفلتي في التراب، لكن حزني كان يملؤني ويطفو على ملامحي، وكانت أمي تحاول بكل طريقة التسرية عني، لكنها كانت تخفق رغم اجتهادها، ففي سبيل جعلي أنسى، لم تكن تذكر ابنتي أمامي باسمها (رحمة) وكأنها كائن بلا اسم ولا وجود، ولا قيمة واقعية ولا رمزية في حياتي، وما كان تنكيرها بتسميتها (بنت) أو الحديث عنها بضمير الغائب لينسيني إياها، فما كانت تتعجله أمي ثوى داخلي طيلة حياتي.

ومع ذلك فلم يحجب حزني عني قلقَ أمي وتألمها لألمي، ورغبتها أن أتخطى فقدي، وأواصل دربي ما دمت في مقتبل عمري وكامل عافيتي والحياة تفور بين يدي.

وقد خشيت أمي إصابتي باكتئاب ما بعد الولادة، وكانت تصنع لي التلبينة[1] وترجوني أن أشربها، فأتجرعها إكرامًا لرجائها، ولأجلها فقط تحاملتُ على نفسي عندما حلّ العيد بعد ولادتي بثلاثة أيام، ونهضت من فراشي لأتزين وأرتدي ثيابًا جديدة، لكن وزني كان قد زاد أثناء الحمل، ولم تعد ثيابي قبل الحمل تلائمني، وولادتي حدثت فجأة ولم يسعني الاستعداد لما طوته من مفاجآت، ولم أجد أمامي وقتها إلا ملابس الحمل التي ظننت حين ابتعتها أن العيد سيهل علينا وأنا لم أنجب بعد، وعندما بادرت بالتجهز لاستقبال القادمين للمعايدة، إرضاء لأمي وتطييبًا لخاطرها، وارتديت ملابسي ونظرت إلى نفسي في المرآة، أبصرت خواء الملابس جهة بطني المنتفخ سابقًا، وشعرت بخواء مثله داخلي، كنا متناغمين، وكان مظهري بتلك الملابس يحكي خوائي الداخلي.

---

(١) شراب ورد في السنة النبوية للمحزون.

وتهاوى كل شيء ...!

هذا ما يجب أن تعرفه عن الأشياء

إنها تتداعى .. كما تفعل عادةً

وكما ستفعل دائمًا

جُبِلت طبيعتها على ذلك

آلي سميث

يترك الفقد وشومه الداكنة فيمن يعبرهم، وكما أن الوشم يحرق الموشوم لحظة وشمه، ثم لا يلبث ألمه أن يزول، فينسى صاحبه أنه قد وُشِم، حتى يبصر وشمه ماثلاً أمام عينيه، كذلك يفعل الفقد في صاحبه، يلذعه بحرارته، ثم يتلاشى شعوره بالألم تدريجيًا، حتى ليكاد ينسى مصابه، فإذا بأول موقف يصادفه يذكره -بوحشية لا مثيل لها- أنه موشوم بالفقد.

وكنت قبل فقداني المتكرر لأجنتي فتاة تحتفل بالحياة، ولا ينقصها العزم والتطلع والتحدي، أو هكذا بدا لي؛ إذ كنت تلميذة مجتهدة في طفولتي وظللت كذلك حتى تخرجي من المرحلة الثانوية، وإن كنت أفسر بواعث تفوقي آنذاك بأمرين، أحدهما أنني لم أدخل الروضة كبقية إخوتي، بل سُجلت مباشرة في الصف الأول الابتدائي، ولا أدري أكان من سوء حظي أم حسنه أنني وضعت عند توزيع الطالبات على الفصول عند معلمة لا ترحم، ولا تضع العصا من يدها، وما زلت أذكر شكل تلك العصا الخشبية وتموجاتها، وكنت أشعر برعشة خفيَّة كلما شاهدت الصندوق الخشبي للطماطم عند جلب الخضروات لبيتنا، فقد بدت لي

تلك العصا وكأنها منتزعة من الصندوق نفسه، ولما كنت الطفلة الأولى بعد ثلاثة ذكور واحتفى بي جدي لأبي وأبي وأمي -رحمهم الله جميعًا- والعائلة كلها، فقد كنت بمنجاة من الأذى في بيتنا، بل كان من تسول له نفسه مسّي بأي أذى مهددًا من أبي، لذا بدا لي أن دقات قلبي المرتعب والتي كانت تتصاعد كلما دخلت الفصل المدرسي، هي ما دفعني للاجتهاد والتفوق بأقصى سرعة، فقد كنت أنهض وأجيب على السؤال المطلوب من المعلمة والسؤال الذي لم يسئل بعد؛ لفرط خوفي منها، تلك التي لم تكن تتوانى عن إحراق الأكف الصغيرة البضّة بعصاها الملتهبة لمجرد أن إحداهن كتبت حرفًا مائلاً عن السطر.

أما تفسيري الآخر لتفوقي فمنافستي الشديدة مع أخي الذي يكبرني مباشرة، فقد كنا نتنافس أيّنا يتفوق على الثاني عند نهاية الفصل، وكنا نتنافس على محبة أبويّ، بل كنا نتنافس في كل شيء تقريبًا، وكانت هذه المنافسة تروقني قبل دخولي للمدرسة، فلما دخلتها أصبح التنافس الدراسي الوسيلة الوحيدة التي أنفي بها تميزه عني، فقبل المدرسة كان شعري قصيرًا وكنت ألعب معه الكرة، وبعدها أصبح لا بد من ترك شعري يطول ويجدل في جديلة، وكانت هذه الجديلة نقطة ضعفي في منافستي لأخي؛ إذ كانت تمكنه أن يقبض علي بسهولة بمجرد أن يلتقط طرفها وأنا أجري، في حال كنا نلعب معًا، أو حينما أستفزه فيلاحقني للظفر بانتقامه السهل بشدّها.

وعندما انتقلنا من الحي الذي قضيت فيه طفولتي الأولى بين بيوت أجدادي وأعمامي وصديقات الطفولة، إلى بيت جديد بطابقين وحديقة كبيرة، بناه والدي لنا في حي جديد وقتذاك، جردني الانتقال له من كل

ما كنت أتمتع به في حيِّنا السابق، فقد كنت لا أُمنع من الخروج إلى الشارع إلا وقت الظهيرة وبعد صلاة المغرب بقليل، وبعد انتقالنا لبيتنا الجديد، أصبح الوضع مختلفًا فلا بيوت كثيرة تحيط بنا في ذلك الحي، ولا صديقات، ولا أي بقايا من مباهج عالمي الأول، كنت وقتها أدرس في الصف الخامس الابتدائي في مدرسة جديدة، وبين وجوه جديدة، ولما انتقلت إلى السنة السادسة الابتدائية كان علي أن أرتدي العباءة، ولم أعد أخرج للشارع بطبيعة الحال، ووجد أخي وسيلة أخرى لمناكفتي، فقد أخذت تظهر مميزاته في الخروج من البيت وقتما أحَب، في حين كان عليَّ البقاء فيه، وبعدما كنا كفرسي رهان أصبحت الأشياء تُفرِّق بيننا.

ومع هذا فقد بقي التفوق الدراسي هو وسيلتي الأمضى لإثبات الذات، وحتى عندما تلاشت تلك المنافسة مع التحاق أخي بالمرحلة الدراسية المتوسطة، وانحصار تنافسنا في مجال الألعاب؛ إذ انتقلنا من لعب الأونو، إلى المنوبولي، فالشطرنج، لم أعد أملك التخلص من عاداتي الدراسية وكما في الحديث النبوي (والذي بعثكَ بالحقِّ ما أحسنُ غَيْرَهُ)[1]؛ فلا أعرف طريقة أخرى للدراسة، غير تلك التي اعتدت، بل غدوت أحب الدراسة بصدق وإخلاص وتفان..

وكان مما سرني بعد زواجي عند حصول إبراهيم على وظيفة في مدينة تبوك، أنه كان يسعني إكمال دراستي والحصول على درجة البكالوريوس، إذ لم يكن في البلدة التي نشأنا فيها جامعة ولا حتى برامج دبلوم في ذلك الوقت، وكان جدي لأبي رحمه الله قد انتقل بجدتي قبل

---

(١) راجع نص الحديث كاملًا فيما أخرجه البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة (٧٥٧).

سنوات من مجيئنا إلى الدنيا، من مضارب القبيلة في نواحي الحجاز إلى القريات بعد تعيينه مديرًا لجمركها فوكيلاً لإمارتهـا، قبل تحويلها إلى محافظة من محافظـات منطقة الجوف، بعد سـنوات لاحقة، ويبدو أن القريات راقت له فأحبها وقرر الإقامة فيها، ومن حرّ أراضي الحجاز إلى أجواء أطراف الشـمال الباردة كان التحول، وهناك ولِدنا أنا وإبراهيم، وهناك كانت تسكن عائلتانا.

وفي تبوك سجَّلتُ في قسم الرياضيات في كلية التربية قبل تحويلها إلى جامعة، فقُبلت في القسم وبدأت الدراسة في السنة الأولى لزواجي، ثم حملت حملي الأول، ذاك الذي لم ألبث أن فقدته، ثم حملت بعدها برحمة فرفعت طلب تأجيل للدراسة لمدة عام آنذاك، وبعد فقداني لها لم أتمكن من العودة إلى الكلية، لتقدم إبراهيم بطلب وظيفة في القريات، وقبول طلبه، وانتقالنا إليها، وهناك فقدت حملاً آخر بعد رحمة، وكان برنامج الدبلوم قد بدأ في مدينتنا فسجلت للدراسة لئلا أفكر بما يحدث لي من فقد متكرر مجهول السبب، وبدأت الدراسة في العام الذي تلا انتقالنا، فحملت مـرة رابعة، لكنني أبيت ترك الدراسـة هـذه المرة لأن الفقد الأخير لجنيني لم يكن مرتبطًا بها.

كما أنني لم أكن أعمل أي شيء في المنزل فقد فاجأتني والدة إبراهيم بتوفير عاملة منزلية استقدمتها لأجلي، ولم يكن بوسعي احتمال الفراغ، فلم تكن اهتماماتي العلمية تشـكلت آنذاك، وكنت أمضي معظم وقتي في القراءة ومشاهدة الأفلام والمسلسـلات، ولذا وجدت في الدراسة شغلاً صارفًا عن التفكير في هذا الجنين الذي ينمو داخلي ولا أعلم هل سأراه أم سيحدث معه ما حدث مع رحمة، وسارت الأمور على ما أحب،

ووجدت في الدراسة متعة، وكونت صداقات جديدة، وفي نهاية الفصل الأول من السنة الدراسية الأولى للدبلوم، كنت قد أكملت أربعة أشهر من الحمل، وكان لدي موعد مع طبيبة مختصة لا تأتي للمستشفى إلا مرتين في العام، وعندها كانت ستخبرني إن كان جنيني يشكو من تشوُّه أم لا.

وكنت سأتغيب عن الكلية يومها لولا أنه كان لدي اختبار أخير يجب أن أحضره أولاً. فذهبت إلى الكلية على أن يأتي إبراهيم لاصطحابي بعدها لموعدي، وقد أخبرت المسؤولة أنني سأخرج في الساعة المحددة ولن أكمل اليوم الدراسي فأذنت لي، فلما حان الموعد لم أتمكن من الخروج، وكان الوقت مبكرًا وبوابات الخروج مغلقة ولا بد من أن تأذن المسؤولة بفتحها، فذهبت إليها، فلم أجدها في مكتبها، وصادفتها تحدث عددًا من الطالبات في الرواق، فكلمتها وذكَّرتها بطلبي الخروج فرفَضَت، فأخبرتها بأن الموعد مهم جدًا بالنسبة لي وحسّاس جدًا وليس موعدًا عاديًا يمكن تأجيله، فرفَضَت، ولأنني كنت مشحونة بالمخاوف والترقب والتوتر تجاه كل التوقعات التي سيحسمها تشخيص الطبيبة هذا اليوم، فقد دمعت عيناي وأنا أتحدث، فنهرتني وسخرت من دموعي زاعمة أنها مجرد (دلع) وأطلقت صرخة مدوية لمعاودتي الطلب منها، صرخة دارت معها رؤوس الطالبات نحوي. عندها انسحبت لأول ركن صادفته في الجوار، وانفجرت باكية، بعيدًا عن أعين الطالبات، كانت دموعي المنهمرة أمام جبروت تلك المرأة قاسية القلب بمثابة إهانة لنفسي، ما كنت لأرتضيها، وأقسمتُ ألا أرجع إلى الدراسة بعدها.

لم يكن هذا الموقف عابرًا، ولا طبيعيًا بالنسبة لي، فقد كنت شخصية

قوية متحدية، فكيف لصرخة واحدة أن تهزمني، كيف لكياني أن يتضعضع لها! لم أكن أنا قطعًا تلك الضعيفة الخائرة القوى، تلك التي انسحبت دون أن تدافع عن حقها، وتلقن تلك المتعجرفة درسًا في الإنسانية واحترام الآخر.. ولم أجد في أيِّ شيء مما ذكره لي إبراهيم من مبررات للعودة إلى الدراسة وذكرته من بعده صديقاتي لحملي على التغاضي عما حدث والرجوع إلى الكلية أيَّ أثر أو عزاء.

لقد هدَّمني الموقف لأنني كنت قابلة للهدم، لهشاشتي الداخلية، لذا كان الشعور بالذنب تجاه نفسي التي لم أحْمِها من غِلظة تلك المرأة موجِعًا ومحطِّمًا، وعندما يحترم المرء نفسه، ويعيش محافظًا على كرامته العمر كله، يصبح هدرها أشبه بسفحِ دمِه، ولا فرق.

مثّل ذلك اليوم منعطفًا حادًا في حياتي، حافظتُ بعده على إصراري على عدم العودة إلى الدراسة، دون أن يكون ذلك مانعًا لي من محاولة استعادة ذاتي الأولى، وعندها، عند تلك اللحظة بدأت رحلة الاهتمام بالقراءات المتصلة بفهم النفس، وأصبحت الدراسات النفسية والتنمية الذاتية تحتل مساحة واسعة من اهتمامي، وكانت محاولةً لتلافي إهمالي لتأثير الفقد في شخصيتي، وإعادة رأب ما تصدع داخلي بعدما حدث، ولا يسعني هذا قبل أن أفهم ذاتي فهمًا عميقًا، وكان للجوئي لتلك القراءات أثرٌ جانبي لا يقل أهمية عن محتوى ما قرأت، وهو أن هذا النوع من الكتابات المترجمة عن الإنجليزية غالبًا، كانت كتابات وظيفية، وتتسم بطابع إجرائي صرف، وبخلاف الكتابات الأدبية، كانت كتب الدراسات النفسية والتنمية الذاتية خلوًا من الفن، ومن الأساليب الجمالية والبلاغية، وكان لأسلوبها التحليلي والعَمَلي المباشر أثرٌ في تخفيف

غلوائي العاطفي الذي عززته الكتابات الأدبية، بل إن كتب التنمية الذاتية كانت مرحلة وسيطة نحو الكتابات الفكرية العميقة، فبعد أن كنت ألاحق الأساليب الجمالية والإيقاعات الوجدانية فيما أقرأ، بتُّ ألاحق الفكرة، وكما كان للكتابات الأدبية جاذبيتها الفاتنة، بات للفكرة جاذبيها الأكثر فتنة، وهكذا عبَرت بي تلك الهزيمة النكراء من الذاتي إلى الموضوعي.

هيفاؤنا
الحياة تنبعث من جديد

أحسُكَ بين نبض القلب نبضًا
يضيء بمهجتي ومضًا وبرقًا
أحسُكَ في دمي سحرًا وعطرًا
يناغم جاهدًا فيما تَبَقَّى

روضة الحاج

أضاءت هيفاء حياتنا بعد مضي أكثر من أربع سنوات على زواجنا، وكان استقبالنا لها حافلاً بهيجًا، ولا زلت أذكر كيف بقيتُ أتحدث لوقت طويل يشبه هذيان المحموم بعد أن أطلّت هيفاء على الدنيا وخرجتُ من غرفة الولادة بسلام، كانت ثرثرتي فرحًا بالمولودة، وفرحًا بالنجاة، وفرحًا بعودة الحياة إلى جسدي المسكون بالموت قبل رحيل (رحمة) وبعده.

وكانت أمي قد رافقتني طيلة الساعات الإحدى عشرة التي استغرقتها الولادة، فقد دخلت المستشفى في المساء وأشرقت علينا هيفاء في صبيحة اليوم التالي، وطيلة تلك الساعات لم تنم أمي ولم ترتح للحظة، وكانت خائفة ومتوترة من أن يتكرر معي ما حدث لي في ولادتي الأولى بطريقة أو بأخرى، وكنت أشعر بالوجع يسري من جسدي إلى قلبها كلما أحسّت بي أعاني آلام الطلق، ولم تفتأ تتعجب من صمتي طيلة فترة

المخاض، كانت تنظر إلى شفاهي وقد ازرقّت من شدة الألم، وتقول لي ليس عيبًا أن تئني يا ابنتي، لكنني كنت شديدة الخجل من أن يسمع أحد في ألغرف المجاورة أنيني، ورافقتني منذ ذلك الحين عادة (الولادة الصامتة) التي بدأت مع رحمة ثم هيفاء وحتى آخر طفلة أنجبتها بولادة طبيعية.

ولم يسكن قلق أمي ولم تبرح المكان الذي أنا فيه حتى غادرتُ جناح الولادة ونُقلت إلى غرفة خاصة، وهناك قالت لي وهي تستلقي منهكة على سرير المرافق: اهدئي وحاولي أن تنامي فلن تدعك تلك الطفلة تنامين كما كنت قبلاً، وستؤقتين لنومك ويقظتك وفقًا لساعات نومها ويقظتها بدءًا من الآن وحتى تتمكني من تنظيم أوقات رضعاتها ونومها بعد أشهر.

لا أدري كم استمريت في الكلام والهذيان بعدما قالته لي أمي لكنني استسلمت للنوم أخيرًا، لتوقظني الممرضة بعد ساعات وبين ذراعيها هيفائي، وفتحت أجفاني على قول أمي: ملاك هذه ابنتك فاحمدي الله، فحمدته وضممتها إلى صدري ويداي ترتجفان من الانفعال بالموقف، وأخذت أشمها وأحبس أنفاسي لتذوب رائحتها في دمي وتتخلل كل ذرة من كياني. كنت أتأمل بشرتها الرقيقة الشفافة وأنفها الصغير وشعرها الأشقر الخفيف وهي مغمضة العينين، ثم أزحت عنها الغطاء الذي يلف جسمها وحاولت إيقاظها برفق، ووضعت إصبعي في يدها لتقبض عليه بأصابعها وكل ما في داخلي يتشوق لهذه اللحظة ويموج بالحنان، ولفتت انتباهي أصابعها الطويلة والرقيقة، وقلت لأمي انظري إلى أصابعها تبدو كأصابع عازفات البيانو في الروايات، وكنت أتطلع لرؤية تلك العينين

الصغيرتين المغمضتين وعندما فتحتهما كانتا بلون مختلف، فقلت لأمي عيناها ملونتان، فردت أمي ربما، وأخذتها حيث يشع ضوء الشمس من نافذة الغرفة ثم نظرت إلي مبتسمة وقالت ملاك عيناها بلون البحر! وفعلا كانتا بحريتان، ومن لحظتها انشغلت أمي بحفيدتها الأولى، وقامت فلم تقعد، لقد كانت مأخوذة بها، وبقيت هيفاء الحفيدة الأثيرة عندها حتى رحيلها رحمها الله.

أما إبراهيم فقد كانت سعادته لأجلي بقدر سعادته بمولودتنا، وكان ينتظر إجازته السنوية التي أزفت ليحظى بأطول وقت ممكن بصحبتنا، فقضينا تلك الإجـازة وحدنا في بيت والده الصيفي فـي عمّان الأردن، وكان إذا سمع مناغاة هيفاء عند الصباح ينهض من سريرنا بهدوء ويستلها من مهدها دون أن أشعر، ويذهب بها إلى الصالة ليلاعبها، وكان عمرها آنذاك أربعة أشهر.

وكان قد أخبرني قبل تلك الإجازة أنه سيسـافر فـي رحلة عمل إلى اليابان ويبقى هناك لمدة شهرين، ولذا حاول ما استطاع مرافقتي وهيفاء أطول وقت ممكن، فلم يسبق لنا منذ زواجنا أن افترقنا كل تلك المدة، ولم يحدث أن افترقنا مثلها بعد تلك الرحلة أيضًا.

وكنا نتهاتف من وقت لآخر، دون أن يمكننا الإطالة ولا التعبير عما يختلج في صدورنا، فقـد كان يهاتفني من هواتف السكن العامة واقفًا ولم أكن أحـب أن أوقفه طويلاً، لكننا كنا قـد اتفقنا على خوض تجربة المراسـلة في وقت كان قد ولّى فيـه زمنها؛ فقد بدت لنـا تجربة جديدة وجميلة بحسب ما صورته لنا كتب الأدب آنذاك، لذا كان علينا خوضها وقول ما لم يسعنا قوله في مهاتفاتنا القصيرة. ووصلتني أول رسالة منه،

ما زلت أحتفظ بها حتى اللحظة بمظروفها وأختامها وطوابعها البريدية، وكان قد أرسلها لي حين غادر طوكيو إلى أوساكا، وحملها إليَّ أبي عند عودته من العمل، إذ كنت أقيم أثناء سفر إبراهيم في غرفتي الكائنة في بيت أهلي قبل أن أتزوج، وحين لوَّح لي أبي بالمظروف مبتسمًا قفزت إليه لاستلامها وطار بي فرحي بها إلى الطابق العلوي ومنه إلى غرفتي لإغلاق الباب والاختلاء بالرسالة.

كانت كلماته دافئة وأنيقة كعادته، فاستهل رسالته بحديث عذب رقيق عن اشتياقه لي وهيفائنا، لأحاديثنا معًا، لأمسياتنا ولياليناء، وفنجان القهوة الذي أعده له بيدي كل صباح، وأتبع أحاديث الشوق بسرد ما حدث معه في رحلة سفره منذ أن غادر مطار الرياض وحتى وصوله إلى مطار طوكيو، ومنها إلى أوساكا، فالسكن المخصص له هناك، وحكى لي بعدها كيف تنقَّل من مدينة يابانية إلى أخرى أثناء العمل، وكيف يقضي يومه هناك، وأمور أخرى.. طمأنني وطلب مني ألا أحزن لغيابه، لكنه عاد ليحدثني عن أشواقه المضنية، ويطلب مني الكتابة إليه.. لا أدري كم مرة أعدت قراءة رسالته، لكن الذي أدريه أنني في كل مرة كنت أعيد فيها قراءة كلماته كان ينبجس معها داخلي شعورٌ جديد، وشوقٌ جديد، وحنينٌ لا يهدأ.

أُمي .. فجر الرحيل

ولون السماء الذي لا يراه
كثيرٌ من الناس
حين يمرُ على القرب من دارها
يتمهل،
ماذا يقولُ وقد رحلَت
في الصباح الحزينِ
قناديلُ أمي؟

عبد العزيز المقالح

همسَ لي عند الخامسة فجرًا، ملاك.. فأفقت ورفعتُ بصري إليه، وبدا لي مرتبكًا، فنهضت من فراشي وسألته مباشرة، وكأنما كنتُ على أهبة الاستماع لخبر سيء: هل أمي بخير؟ قال: اتصل أخوك وأخبرني أن حالتها متأزمة. وكانت أمي في العناية الفائقة في مدينة الملك فهد الطبية بالرياض، منذ شهرين، وكنا نزورها يوميًا، كانت غائبة عن الوعي لكننا كنا في ذروة الرجاء أن تفيق من غيبوبتها المفاجئة وتعود لها عافيتها، لتعود لنا، وتسكن المنزل الذي بناه أخي لها في المدينة المنورة، حيث كانت تحب.

وقد أحبتها محبة العارف بفضلها، وكانت تحتفظ بكتاب فضائل المدينة للرفاعي، ولا تملُّ النظر فيه، آملةً أن تقضي آخر أيامها فيها رحمها الله، لكن الموت عاجلها قبل أن تطأ قدماها عتبة ذلك البيت.

قال لي إبراهيم حينها: بدِّلي ملابسك لنذهب إلى المستشفى فتناولتُ

ملابسـي من الدولاب، وأيقظت العاملة لتنتبه لرضيعي الذي تركته في مهده بغرفتنا، وسارعت في النزول إلى الطابق الأول، ودخلت أول غرفة صادفتني لأبدل ملابسي دون أن أشعل ضوء الغرفة، ولم أنتبه أن إبراهيم كان يقف خلفي حتى سمعته فجأة يقول لي وأنا نصف عارية في الظلام: ملاك عمتي توفيت! فتحجَّرت مكاني ولم أنبس بكلمة، ولم ألتفت إليه، ثم أكملت ارتداء ملابسي، وارتديت عباءتي وخرجت إلى الشارع دون أن أنظر ناحيته.

وكهائمة بقيت واقفـةً هناك بانتظار أن يأتـي ليأخذني لأمي، بدا لي أنني وقفـتُ دهرًا، وكانـت عتمة الليل آخـذةً بالانجلاء وزرقة السـماء تختلط بصفرة الشروق، وإذا بالمباني المقابلة لي تتحرك وتتمايل وتدورُ ببطء أمامي.. كنتُ تحت تأثير الصدمة، فقد زرنا أمي قبلها بيوم ففتحت عينيها ونظرت إلينا، وسألناها إن كانت قد تعرَّفت إلينا، فأومأت أن نعم!

فإذا بخبر الوفاة يفجؤني دون سـابقِ يأس من شفائها، بل بعد سابقِ أمل به، ولما أحسست ببصري يزوغ والأرض تروغ من تحتي، وبشيء يتهاوى داخلي، تشبثتُ بالاسترجاع والاستغفار والحوقلة، كنت أربت على قلبي، وأتصبَّر، حتى وصلنا المستشفى، وصعدنا إلى قسم العناية وإبراهيم يسـير معي صامتًا بعد أن حاول أن يمسك بيدي مرات عديدة فأفلتُّها منه؛ كنت عاتبةً عليه لإخفائه الخبر للحظات عني، لمفاجأتي به من ورائي دون أن يُرينـي وجهه، لإخباري به وأنا لـم أتدثر بثيابي بعد، وكأنَّ هذا الفعل قـد انتزع جِلدي فبرزت معه أوصالي وشـراييني، كان الخبر كطعنـة تلقيتها مـن الخلف، ولم أدرك سـاعتها كـم كان إبراهيم مصدومًا هو نفسـه بوفاتها، ولم أشعر به، فقد غشـيتني صدمة الموت، ولم يعد يتراءى لي إلا نظرات أمي لنا في زيارتنا الأخيرة لها.

واصلنا سيرنا، فإذا بأخي يقف في آخر الممر قبالة غرفة أمي، وكانت الممرضات في غرفتها يجهزنها لوضعها في ذلـك المكان البارد، ذاك المكان الذي لم تكن أمي تنطق باسمه!

أبصرت أخي فمزقني منظره المتماسك رغم الفاجعة.. أخي الذي كان يحـب أن يجلس دائمًا عنـد قدميها بينما هي جالسـة على الكنب، وجئتُ مرةً أزور أمي أيام مكثها في المستشـفى فشاهدته يجلس على أرضية غرفة المستشـفى ويتلو القرآن فاستغربت وقرّبت له الكرسـي، فاستمرَّ يتلو وأشـار لي أن لا حاجةَ له به، فلما انتهى سـألته لما فعل ما فعل؟ فقال: كنت أحب الجلوس عند قدميها أيام عافيتها فاشـتقتُ له. أخي الذي ربط مصيره بأمنياتها دون أن تطلبه، فبنى بيتًا لأسـرته حيث كانت أمي تتمنى أن تسكن.

ويشاء الله بعد سبع سنوات من رحيل أمي أن يصاب أبي بالسرطان ويأتي به أخي نفسه إلى الرياض للعلاج في مدينة الملك فهد الطبية التي لفظت فيها أمي أنفاسها الأخيرة، ويرافقه أخي مدة إقامته في المستشفى، قبل أن تتدهور صحة أبي ويدخل في غيبوبة وُينقل على إثرها إلى قسم العناية الفائقة، ويتكرر المشهد لأصادف أخي يقف الموقف نفسه، قبالة الغرفة نفسها، في الممر نفسه الذي رأيته فيه بعد أن تلقيتُ خبر وفاة أمي.

الفارق هذه المرة أنني حين جئت إلى المستشفى لم أكن أعلم بعد أن أبي قد توفي، لأن حالته لم تكن مستقرة، ومرَّ بانتكاسات صحية أشد من هذه وتجاوزها، وكان أخي قد كتب في الواتساب قبلها بقليل أن أبي يعاني وأن حالته خطرة، وكنت وقتها أراسـل ابنتي نور من خلوة بحثية كنتُ قد استلمت مفتاحها في اليوم نفسه من مسؤولات المكتبة الجامعية

بعد طول انتظار، كنا نتضاحك أنا ونور في الواتساب، فلما رأيت رسالته تصل إلى المجموعة التي تضم إخوتي وأخواتي وتنزل من أعلى الشاشة كصاعقة، قطعتُ حديثي مع نور، وهاتفته فحاول طمأنتي لكنه قال لي: لا تأتي حتى أتصل بك، فقلت له سآتي على أية حال، وصليت الظهر، ثم سارعت إلى المستشفى وصعدت إلى قسم العناية، لكن خطاي تثاقلت عندما اقتربت من المنعطف الذي يقودني إلى الممر، وأصبحت أجرُ رجليَّ جرًا.

وعند انعطافي أبصرت أخي جالسًا هناك في الممر وبيده قارورة ماء، فلم أتزحزح من مكاني وتبادلنا النظرات من بعيد، فأومأ لي أن اقتربي، لكنني تذكرت مشهد وفاة أمي، وأربكني تكراره، فأشرتُ لأخي بيدي متساءلة عن حال أبي، فأشار إليَّ بيديه الاثنتين أن قد رحل أبي!

فثقبت إشارته قلبي واستقرت فيه كرصاصة، فقد قَدِمت هذه المرة وحدي، لم يكن إبراهيم يسير معي وأنا أتمنع من وضع يدي بيده، وكنت قبلها قلقة ومتوترة وأتجاهل الاتصالات الواردة طيلة الطريق وكأنما كنت أتحاشى سماع خبر كهذا وأنا أقود سيارتي، لكنني لم أكن أنا ذاتها تلك الشابة التي تلقَّت خبر موت مولودتها، ولا تلك التي المرأة الناضجة التي تلقَّت خبر موت أمها، ثم موت زوجها، كنتُ أكبر سنًا، ومشرَّبة بمرارة فقدين، بل ثلاثة، بل أربعة. كنتُ أحمل في قلبي تواريخ فَقْدٍ جعلتني أميِّز بين مراراته؛ إذ لكل فقد مرارته الخاصة، وكنتُ حينها أوْفَر علمًا بعاقبة الصبر على الابتلاء وحكمته، كنتُ أكثر تعلقًا بالله، وأقدَر على التعامل مع المصاب، وإن كان الراحل لا عوض له..

وأعظم مفقودٍ رُزئتَ به من لا نظيرَ له في الخلقِ يَخْلُفهُ

كان أخي الذي شهدتُ معه الوفاتين، هو نفسه من كنت أتنافس وإياه على محبة أبوينا في صغرنا، هو نفسه مع تشاركت معه فقدهما، وهو نفسه من كان لي السَّند بعد رحيل إبراهيم بعد أمي بثلاث سنوات، وكان أخي هذا الذي كنت أشكو من تسلطه علي وأنا صبيَّة، يُمضي عطلة نهاية أسبوع معنا في الرياض، وأخرى مع أسرته في القريات في الشمال، مدة عام كامل، وكان قد وضع قبل عودتي إلى الرياض بعد أشهر الصيف مبلغًا من المال في حسابي، وعندما سألته عن سبب تحويله ذلك المبلغ، وأصررتُ على ردّه إليه لعدم حاجتي إليه، رجاني ألا أفعل قائلاً: أعلم أنك لا تحتاجينها، وحوّلتها فقط لتشعري بالأمان!

وإن يكن لتعاقب الفقد على القلوب من أثر، فليس التبلد قطعًا، فما من مصابٍ بفقد أحبته يملك أن يفقد إحساسه بفقد المزيد منهم؛ بل التبلد صياغة رديئة للنتيجة المستخلصة من خبرة الفقد، وإن كنت ممن يوافق المتنبي في أبياته التي يقول فيها:

رماني الدهر بالأرزاء حتى	فؤادي في غشاء من نِبال
فصرتُ إذا أصابتني سهامٌ	تكسَّرت النصالُ على النصال
وهان فما أبالي بالرزايا	لأني ما انتفعتُ بأن أبالي

وحسبت أن الفقد شبيه بهذا، فكنت أقول: كلما تكاثرت النبال، كلما ضعُفَ الشعور بالألم ولم يتضاعف، هو فقط إحساس الوخزة الأولى، فجيعة دفقة الدم الأولى، ثم يصبح الألم كالنزف معتادًا!

بيْدَ أنني استيقنتُ بعد كل ما مرَّ بي، أن أبيات المتنبي لا تصدق على موت الأحبة، وما يحدث لنا عند فراقهم ليس تبلدًا وإنما هو ألفة الخبرة الموجعة، حتى إذا عاودت الرجوع إلينا بأشكال أخرى لم ننكرها كأن لم نعرفها من قبل، وكيف لا؟ وقد بقيت مرارتها الحارقة في الجوف تضطرم، وما ألفناه منها هو فقط ما أنكرناه ابتداء: ألَمُ لَسعَتِها الأولى.

الجائحة .. وقلق العدوى

يغيبُ ظلي في المساء ولا تغيب
لا ساعةً
ولا دقيقةً
ولا مسافة ارتدادِ الطَرفِ يا .. أنا

روضة الحاج

أُصيبَ إبراهيم بالتصلب اللويحي في الثلاثين من عمره، وكان على رقَّة قلبه وجيشان عاطفته صبورًا أشـمًا واثقًا بالله راضيًا بقدره شاكرًا لأنعمه، لم يعرف اليأسُ إلى قلبه سبيلاً، ولم تجد الشكوى إلى لسانه منفذًا، فبقي يقوم بمهامه الأسرية حتى آخر لحظاته، وظل يتقدم في عمله كأيّ سليمٍ صحيحٍ لا يتقضًى الليل ما بين أوجاعه وأنينه.

وزاد قلقي عليه من وقتها، وكنت من قبل أخشى أن يمسَّه سوء، وأحرصُ حتى على سلامة الطريق الذي يمشي عليه، وأتحرز بإزالة كل ما يمكن أن يعترض طريقه فيتعثر به، وقد كان رحمه الله سريع المشي ويتعثر أحيانًا، حتى قبل مرضه.

وأصبحت جملتي الشائعة في بيتنا: (انتبهوا... لئلا يقع أبوكم) جملةً تثير الضحك بيننا.

وتضاعَف هذه الخوف مرات ومرات مع ظروف جائحة كورونا وإقامة الحظر العام في كل مكان، فأصبحتُ أعقم كل شيء يمكن أن تلمسه يداه، وأشرفُ على العاملة، وأشاركها التعقيم حتى تقرَّحت يداي

من المطهرات، وكنت أرجوه ألا يفتح الباب للمندوب عندما يوصل المشتريات من المتاجر، وأسابقه إلى الباب أحيانًا، حتى ضجر من خوفي الشديد عليه ووصفه بالحبس، ولم يكن ذلك ليوقفني أو يثنيني عن رأيي.

وفي إحدى ليالي رمضان خرج من المنزل ففزعنا لغيابه، إذ جاءت ابنتي تخبرني والروعُ يملؤها:

بابا ليس موجودًا في البيت!

وكان حظر التجول قد رُفِع جزئيًا، فإذا بإبراهيم يرسل إلى مجموعة العائلة في الواتساب مقطعا يصوِّر فيه الشارع أثناء قيادته السيارة داخل الحي ويقول، ضاحكا: تمردتُ على أمكم وهربتُ من سجنها!

ومع ذلك فقد كانت ظروف الجائحة رحمة، فقد مكنتنا من رفقته لأطول وقت ممكن، حتى لا نكاد نفترق إلا ونشتاق لبعضنا، وكنتُ وقتها أحضِّر رسالة الدكتوراه، وكان ينزل إلى الطابق الأول ليفسح لي مجالاً للبحث، ثم لا يلبث أن يتصل بي عبر كاميرا الفيس تايم، ويغريني بالطقس الجميل ويدعوني للنزول وشُرْب كأس من الشاي بالنعناع أعدته له ابنتنا نور، وكانت تُعده له وتجلس معه في ذلك الوقت المخصص لتناول الشاي في حديقة المنزل كل ليلة.

ثم رُفع الحظر كُليًا وعادت الرحلات الجوية تدريجيًا لتصل بين مدن المملكة، وقررنا السفر كالعادة في كل إجازة صيفية إلى أهلنا في شمال المملكة، فقد كنا نزورهم ونمضي معهم جزءًا من الإجازة الصيفية ثم نسافر من هناك للسياحة، ولكن الخطوط الجوية لم تكن قد استأنفت الرحلات إلى ذلك الطرف القصي من بلادنا بعد، ولأول مرة قرر أن يسافر قبلنا، ولأول مرة نفترق في سفر الإجازة إلى أهلنا، فسافر مع هيفاء

إلى مدينة قريبة من مدينتنا، وجاء أخوه لاستقبالهما والسفر بهما إلى حيث يقيمون، وبقيت مع الأولاد في الرياض، إلى حين فتح الرحلات، لا لمانع إلا الحياء، إذ كنا أسرة كبيرة فاستحييت أن نثقل على الأهل هناك بتجشم السفر إلينا بسيارتين لإقلالنا وأمتعتنا الكثيرة من المطار.

وما أن وصل إبراهيم وهيفاء إلى هناك حتى شرعَ في الانتقال من المنزل الذي كنا نقيم فيه إلى آخر قريب من منزل والدته ومنازل إخوته، ولم أكن مقتنعة بفكرة الانتقال لأنني كنت أفضل بيتًا أرضيًا بحديقة للاستمتاع بأجواء المنطقة الباردة، لكنني رضيت لإعانته على برّ أمه الحبيبة، لا إليه فحسب، بل لي أيضًا. خاصة وأنه انتقلَ معي إلى الرياض لأكمل الدراسات العليا وترك كل شيء خلفه، بما فيه بيتنا الذي كنا نبنيه آنذاك بقرب منازل أسرته.

وكان سعيدًا بوجوده بينهم بعد طول غياب، فأرسل لنا صورَ استقبال أمه السعيد به وهيفاء، وصورته بثوبٍ بيتيٍّ جديد أهدته له أمه الحنون، وكان يرسل لنا صور الجلسات التي يقضيها مع إخوته وأخواته في حديقتها، ويمازحني مرة بعد أخرى بالتغني بحريته بعد الانعتاق من سجني.

الأرق السابق للوفاة .. ورأفته بي وهو بعيد

هدأ الليلُ ولا قلبَ له

أيها الساهرُ يدري حيرتك!

إبراهيم ناجي

اعتدنا طيلة فترة زواجنا على محادثة بعضنا البعض وقت السفر الطارئ مرتين على الأقل: مرة قبل النوم مباشرة، ومرة عند الاستيقاظ منه، لكن إبراهيم خرَقَ هذه العادة في سفره الأخير بلا سبب واضح، فكان يحدثني في أي وقت في اليوم والليلة، عدا ما قبل النوم، وكنت أسأله متعجبة: لماذا لم تهاتفني ليلة أمس؟

فيقول ظننتك نائمة أو تعملين على رسالتك فلم أرغب بإزعاجك.

وكنت أجيبه في كل مرة: ولكنني أسعد بالتحدث معك ولا تزعجني مهاتفتك، ولا يمكن لها أن تفعل!

وما أن سافر حتى أصابني الأرق فأخذ النوم يجافيني، واضطرب مستوى السكر في دمي، إذ كنت مصابة بالسكر من النوع الثاني، لكنه لم يكن يشهد ارتفاعات كبيرة كالتي حدثت إبّان سفر إبراهيم، وكان قلقًا لأجلي فحثني على الذهاب إلى المستشفى وإجراء التحاليل، فتنصلت متذرعة بانشغالي، فطلب من ابن أخته وكان طبيبًا أن يحدثني للاطمئنان حول وضعي الصحي المضطرب فجأة وبلا سبب ظاهر.

فاتصل بي وطلب مني إجراء التحاليل المنزلية وتزويده بجدول النتائج بعد أيام، ففعلت.

ولم يفتأ إبراهيم يتصل ويطمئن على صحتي، ويحدثني عن إنجازاته في الانتقال إلى البيت الجديد والأجهزة التي اشتراها، ويشاورني حول أماكن ترتيب الأثاث في الغرف، ويصور ويرسل لي، ويستحثني لاستغلال الوقت أثناء غيابه، فكنت أخبره أن كل ذلك الحماس للعمل على الرسالة قد انطفأ بعده، وأن كل شيء في غيابه أضحى صغيرًا وضئيلاً وتافهًا ولا قيمة له.

المهاتفة الأخيرة!

ولمــاذا ينطفـــي أحبابُنـــا

قبل أن يستنفد الزيتُ الذبال؟

ثم ننسى الحزنَ بالحزن ومَنْ

يا ضياعَ الردِّ.. يُنسينا السؤال؟

عبد الله البردوني

كان يرغب طيلة الأيام التي قضاها هناك بمحادثتي عبر كاميرا الفيس تايم، وكنت أعتذر لأنني لم أكن مستعدة وقت اتصالـه بالمظهر الذي أحب أن يراني عليه، وغايةُ ما في الأمر أنني كنت أرغب أن يراني بلباس مختلف، فعلى عكس الكثيرين كانت تلفته التفاصيل ويحتفي بها ويُعلّق على أية إضافة جديدة أو تغيير يسير يلحظه في مظهـري أو بيتنا، وقبل وفاته بيومين ابتعتُ فستانًا صيفيًا بسيطًا، وهاتفته عبر الفيس تايم، وكان سعيدًا وهو يحدثني لكنه بدا منهكًا ورأيت على ملامحه وهنًا زائد عن المعتاد، وبدا لي وجهه وكأنه يعاني من انتفاخ يسير، لكنني كنتُ سعيدة مثله بالمهاتفة فلم أتعمق وأذهب بعيدًا في التفكير في الأمر.

وفي ليلة وفاته- رحمه الله- اتصل عبر الفيس تايم أيضًا وكنت وقتها في مكتبة المنزل أعمل على الرسالة، فأجبتُ على اتصاله لكنني لم أُظهر وجهي معتذرة بأنني لم أكن بالمظهر الذي يحب، وكنت أصفف شعري وقتها بطريقة لا تـروق له، ولأنها كذلك لا أفعلهـا إلا في غيابه، إذ كان يحبه منسدلاً وكنت وقتها أرفعه. فأصرَّ وأبيْت، فضحك لعنادي وتدقيقي

غير الضروري، وتحدثنا والكاميرا موجهة إلى الجهة المعاكسة، وطلب مني عند نهاية حديثنا أن يشاهد الأولاد عبر الكاميرا، وكانت نور تجلس على كرسي المكتب، فناولتها الجوال ليهاتفها ريثما أدعو البقية ليهاتفوه، وهاتفهم بنتًا بنتًا وابنًا ابنًا، ولم يدُر في خَلَدي وقتذاك أنها المهاتفة الأخيرة!

وفي اليوم التالي (الجمعة) استيقظتُ متأخرة لسهري على الرسالة وغياب استعداداتنا المعتادة للجمعة بسبب سفره، فلا أحد سواه يصلي الجمعة في المسجد، وكلنا نصليها ظهرًا، وعمر وسعد صغيران.

وكنت سأهاتفه لحظة استيقاظي من النوم كما جرَت العادة، لكن أمرًا لا أدرك كنهه دفعني للتروّي وتناول أي شيء قبل أخذ الدواء، فأكلت قطعة من البيتزا، وتناولت الدواء، واتصلت به، لكن هاتفه كان مغلقًا، فساورني قلقٌ غريب، فقد كان لا يغلق هاتفه بحال، وكان قد تعرض قبلها بيومين لإغماءة قصيرة وسقط في الاستراحة التي يجتمع فيها مع إخوته وإخوتي ورفاق الطفولة، ونُقل إلى المستشفى وأجريت له فحوصات شاملة باستثناء تخطيط الدماغ، إذ طلب إبراهيم إرجاءه إلى ما بعد انجلاء أزمة كورونا تمامًا، وكان سبب الإغماء هبوطٌ حادٌ في ضغط الدم.

وتبديدًا للقلق انتظرت قليلاً بعد مصادفتي إغلاق هاتفه، ثم عاودت الاتصال مرارًا ومازال الهاتف مغلقًا، فتفاقم قلقي، ودخلت عليَّ ابنتي ريما فحدثتها بالأمر وما أنا فيه من الحيرة والقلق، ثم جاء البقية، وهم واجمون متسائلون، فاتصلتُ بأخته الكبرى، وكان أفراد العائلة يجتمعون في الصيف وكانت معهم هناك، فلم تجبني الكبرى فشككت أن في الأمر ما يقلق، واتصلت مباشرة بأخته الثانية المعروفة بيننا بتجلدها في المواقف

الأليمة، فأجابت وكان صوتها هادئا لكنه لا يشي بخير، فسألتها عنه فأخبرتني أنه في مجلس الرجال، وكان من عادتهم إعداد غداء عام كل جمعة، وطمأنتني على صحته، قائلة: ربما نفدَ شحن هاتفه ولم ينتبه له. فلم أطمئن وهاتفتُ أخي وبحتُ له بحيرتي وشكوكي فأخبرني أنه ذاهب إليهم للغداء، وسينظر ما الخبر ويجيبني، فاستحلفته بالله أن يصدقني والقلق ينهش قلبي، وبناتي وأبنائي يجلسون حولي وعند أقدامي، وكلنا بلغ به التوتر كل مبلغ، فهاتفني أخي قائلاً إن إبراهيم تعب قليلاً ونقلوه في سيارة الإسعاف إلى المستشفى وأنه سيذهب إلى هناك ويحدثني، فظننته أصيب بهبوط ضغط حاد كالمرة السابقة، ومع ذلك فقد أخذتُ أستحلف أخي مرة بعد أخرى أن يصدقني ولا يخادعني أو يخفي عني شيئًا، فوعدني بذلك، وكنت وقتها أجلس على المقعد في غرفتي، فعلمتُ أنني سأجن من القلق إن أنا بقيت مكاني، فنهضتُ من لحظتي إلى سجادة صلاتي في الغرفة نفسها، وتجمّع حولي الأولاد وأنا أسجد وأدعو، وأبتهل، وبين الحين والآخر أتصل بأخي، فيخبرني أنه مازال في الطريق، واتصلت بعدها فقال: وصلت، وسأدخل المستشفى، ثم اتصل بي قبل أن أتصل به فسألته مباشرة عن إبراهيم، وكان الجواب: ادعوا له بالرحمة!

فضممت إلي أبنائي وبناتي وكانوا ملتمين حولي وقلت لهم ادعوا لأبيكم بالرحمة، ولا تُروا من الله ما لا يرضى، فبكوا بحرقة وأغمي على ابنتي رهف، وألهمني ربي وقتها أن قلت: اللهم أجرني في مصيبتي واخلفني خيرًا منها. وللحظة وأنا أضمهم إلي كاد أن يهجم علي رعب مواجهة الحياة دون إبراهيم، وأنا أم لسبعة كلهم ما بين سن الصبا والطفولة، فتذكرت قوله سبحانه: ﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ [الأنبياء:٤٢].

وأنزل الله على قلبي سكينة لم أعهدها، أنا التي كانت تستيقظ فجأة من نومها لسنوات وتهز زوجها بسرعة وقوة للتأكد من أنه ما زال يتنفس، فقد كنت مسكونة بهاجس فقده مذ قرأت ذات مرة أن مريض التصلب قد يموت فجأة، حتى اعتاد إبراهيم قلقي، ولم يعد يُعلّق أو يتساءل إذا هززته.

كنا وحدنا ذلك الصيف في الرياض عندما تلقينا خبر الوفاة، فجاءني عمي، وجاءتني بعدها خالتي وابنتها، ولحقتهما جارتي، وبعدها صديقتي في الماجستير، كنت أذكر الله، وابنتي نور تغمض عينيها طوال الوقت، وكأنها لا تريد أن تصدق ما حدث، ولسانها لا يفتر عن ذكر الله.

كان البيت هادئًا، والكل يبكي بصمت، وأخذتُ أتلقى العزاء مهاتفة، وكانوا قد أجروا لنا حجوزات عاجلة للسفر عند الصباح لتلك المدينة الصغيرة التي كنت قد تأخرت لئلا أثقل على من يصحبنا منها !

وفي ليلة السفر زارتني زميلتي في العمل وقالت: لم أستطع النوم وأنا أفكر بك، فأيقظتُ زوجي قائلة: خذني إلى ملاك.

سافرنا صباحًا مع عمي واستقبلنا أخي في المطار ليصحبنا إلى المدينة، وكنا نبكي طوال الطريق دون صوت، وابني سعد ذو السنتين في حضني مبتهجًا بالرحلة ولا يفقه شيئًا مما يدور حوله.

وكانوا قد أخبروني أنهم ينتظروننا في مغسلة الموتى الملحقة بالمسجد لنودع إبراهيم قبل أن يودعوه قبره، فوصلنا واصطحب أخي أبنائي عمر وسعد إلى بيت شقيقتي هلا، لئلا يريا أباهما بهذه الحال، ودخلنا وعمي الآخر إلى المغسلة، وكان الجميع قد سبقنا إليها، وإبراهيم مسجًى هناك، وكان عمي الكبير يحوطنا ويرعانا ببصره ويستعجلنا خشية انهيارنا،

فتقدمتُ إلى إبراهيم وورائي بناتي وقبلتُ جبينه للمرة الأخيرة، وشممته للمرة الأخيرة، ومسحت على شعره للمرة الأخيرة، أنا التي من كثرة ما كنتُ أتأمله وأداعب شعره اكتشفت إصابته بالثعلبة مرتين، وكانت بقعًا صغيرة لا تكاد تلحظ وتفاداها في المرتين، أنا هي ذاتها.. أنا التي كان عليّ أن أودعه الآن للمرة الأخيرة، وأحتفظ بصورة وجهه تلك فلا تفارقني ما حييت.

لحظة الفقد/ البتْر

صدمة الفقد ووحشته

كلُ دهرٍ يمرُ يفجعُ قلبي
ليت شعري! أين الزمان المؤسّي

أبو القاسم الشابي

تأتلفُ الأرواح دون أن ينتزع الائتلاف من أصحابها استقلالهم الذاتي، وهكذا كل روحين ائتلفتا وبقيت لكل من صاحبيهما مساحته الخاصة وإنجازاته واختياراته المتناغمة مع صاحبه. وقد يبلغ الشعور بهذه الاستقلالية ببعضنا حدًا يشكك معه في فكرة الالتصاق بروحه الأخرى، وما هو إلا أن يبغتنا الفقد فيوقظنا من وَهمنا، وإذا بنا قد بُترنا وتشظينا، حتى لم نعد نملك احتمال حالة البتْر ولا التشظي، فما فُقِد لا بديل له، ولا إمكان للعيش بدونه، وإذا بعالمنا يتداعى، وتتداعى معه ظنوننا وتصوراتنا السابقة عن ذواتنا.

وهكذا كنت، مبعثرةً مبددةً بعدما ودَّعتُ إبراهيم ورجعت من عنده لأدخل البيت الذي كان قد أعده لنا لقضاء الصيف قرب والدته، فتسمَّرت مكاني دون حراك؛ إذ كان كل شيء في البيت، كل قطعة أثاث، كل حائط، كل نافذة، وكل زاوية صوَّرها لي تطعن خنجرًا في صدري.. فأشحتُ بوجهي ودخلت إلى غرفة النوم وبدلت ملابسي، وأخواتي ينتظرنني في غرفة الاستقبال، فذهبت إليهن وجلست وأنا أتأمل وأحدثُ نفسي: هل كان إبراهيم ليتخيَّل أنه يؤثث بيتًا لن يجمعنا به؟ بيتًا سنتلقى فيه العزاء برحيله!

كان الناس يدخلون ويخرجون وأنا صامتة واجمة، وبعد انقضاء النهار ومجيء الليل أخبرني أخي أن أبي ينتظرني في الطابق السفلي لأنه لا يستطيع الصعود إلي، فنزلت لملاقاته ووجدته جالسًا على كرسي في آخر الردهة، فاقتربت والتقت عيني بعينه فابتسم لي ابتسامة المتألم، وما أن وجدتني أمامه حتى ارتميت على صدره وانفجرت بالبكاء! بكاءً لم أبكه من لحظة تلقي خبر الوفاة، وكأنه قد حلَّ لي الآن فقط أن أبكي! فأخذ أبي يهدئ من انفعالي ويمسح على ظهري، ويقول: لا يا ملاك ليس هكذا.. ظننتك قوية فلا تخيّبي ظني، لا تبكي يا ملاك، تماسكي، لا تفعلي بنفسك هكذا.. لكنني بكيتُ حتى غاض دمعي، ثم رفعت رأسي وقبلت وجنتيه ورأسه ويديه، وقلت: الحمدلله أنك هنا!

كان أبي وحده من قال لي لا تبكي، في حين كان الآخرون يحثونني على البكاء، ابكِ، لماذا لا تبكين، البكاء رحمة، وكأنه كان بمقدوري أن أبكي وقتما شئت، أو كأن قيمة الفقيد تقاس بقدر ما نسكب عليه من دموع لحظة الفقد!

كنت أفتقد أمي رحمها الله وظللت أفتقدها طيلة الوقت، وتمنيت لو كانت بجواري في هذا الوقت، لأسكن إليها، لأبكي في حضنها، لأنام بجانبها، لأحدثها عن خوفي من مواجهة الحياة دون إبراهيم.. ثم أعود فأتذكر كلاءة الله عز وجل، وأجمع شعثي فأسترجع وأستغفر وأحمد الله؛ فقد كنا نرفل في نعم الله وألطافه العظيمة رغم كل شيء، وكان الجميع حولنا، وأهل إبراهيم يحيطون بنا إحاطة من يُحاذر أن يخدش الريح لنا طرفًا، ولم أكن لأحمل همَّ شيء إلا ووجدتهم يسابقون لكفايتي إياه، وهكذا كان إخوتي وأخواتي.

كانت أختي وخالتي تبيتان معنا، ومع ذلك فقد مرّت عليّ أربعة أيام بلا نوم تقريبًا، وكانت أختي هلا تلازمني وتنام معي في السرير نفسه، وإذا استيقظَتْ ووجدتني مستيقظة سحبت يدي نحوها وأخذت تقبلها وتتوسل إلي أن أنام، وكنت أجيبها بإشارة من رأسي أن سأفعل، فقد استفرغت طاقتي بالكامل ولم تعد لدي قدرة على الكلام.

وفي اليوم التالي جاءتني إحدى بناتي وبين يديها آخر لباس لأبيها كان قد تركه معلقًا في غرفته في منزل جدتها، فأخذت قطعة منه لعلي أستطيع النوم إن أنا شممته واحتضنته، فأثارت رائحته الحبيبة شجونًا وطمأنينة معًا، لكنني لم أنم، وأقلقَ هذا إخوتي وحاولوا إقناعي بتناول منوم لئلا أسقط منهارة لشدة الإنهاك، فرفضت تنويمي لأي سبب كان، وبعدها أخبرتني أختي أن أحد إخوتي هاتفها وطلب منها وضع المنوم لي في كأس ماء، لكن أخي الآخر هاتفها بعده وقال لا تجبروا ملاك على شيء ولا تعطوها أي منوم دون رغبتها، وبقيتُ أقدر لأخي هذا موقفه، مع تفهمي لقلق الأول وخوفه علي.

كنتُ مستنزفة وكان كل شيء غاية في الغرابة.. وجلست هناك مذهولة وصامتة معظم الوقت، بقيتُ في البيت ولم أذهب للعزاء في منزل والده رحمه الله، وامتلأت مجالس البيت بالمعزيات اللائي كنّ يقدّمن العزاء لوالدته وأخواته في منزلهم المجاور، ثم يجئن لتعزيتي، وكان أمرًا غريبًا رؤية كل هؤلاء بعد حجر الجائحة وهدوئها المخيف.. بدَت لي هذه الكثرة المفاجئة مخيفة مثلها.

وفي اليوم الخامس من الحداد أتاني أحد الأقارب المشتركين لي وإبراهيم ومعه رسالة في الجوال كتبها أحد الأنسباء وطلب منه إطلاعي

عليها، فأعطاني قريبي هاتفه لقراءتها، فإذا هي تتضمن نصائح وتوجيهات حول تمكين أعمام أولادي من الإشراف على الأولاد، وأمور أخرى لم يكن الوقت ملائمًا لإثارتها والتحدث بها، وليس هذا فحسب فقد أثيرت مسألة الانتقال من الرياض إلى الشمال، ولم يكن الوقت ملائمًا لمناقشة تلك الموضوعات أيضًا، فلم أكن في حال تحتمل مجرد التفكير فيما أنا فيه من مصاب، فضلاً عن التفكير في أية تغيُّرات تمسُّ كيان أسرتي أو تتسبب بانعطافات مفاجئة في مسار حياتنا بقرارات ارتجالية كهذه وغيرها، وبعد أن كنت مذهولة صحوت على هذه الأحاديث المتعجّلة والمقلقة، وشعرت لحظتها بالانتهاك والاستباحة، أبهذه السرعة أصبحت حياتنا الخاصة حقًا مشاعًا للآخرين! أنا التي حافظت على خصوصيتها كل هذه السنوات، أراها وقد أضحَت فجأة بلا أستار ولا أسوار تحمينا من تدخلات الغير!

وأصبتُ بنوبة هلعٍ ليلتها، ولم أخبر أحدًا بها ظنًا مني أنها لن تتكرر، لكنها تكررت لعدة أيام، كنت أشعر فيها بقلبي يكاد ينفلت من صدري فأضم ذراعيَّ إليه لعله يهدأ.. وكنتُ قد أصبتُ بمثل هذه النوبات قبيل وقت الاختبارات أثناء دراستي لنيل درجة البكالوريوس انتسابًا، وسافرَ بي إبراهيم وقتها إلى عمّان ووصف لي الطبيب علاجًا فشفيتُ منها. لكنني لم أرغب بالخروج إلى المستشفى بعد وفاة إبراهيم، ولا مقابلة طبيب، ولا تناول أي شيء يمكن أن يؤثر تناوله في وعيي ويشغلني عن أولادي.

ولم تتوقف نوبات الهلع بطبيعة الحال، وعندما بلغ إجهادي منتهاه، قمتُ إلى سجادة الصلاة في آخر الليل، وصليت ركعتين في جوف

الظلام، لا أدري كم طالتا، لكنني أذكر أنني بقيت أردد سورة الإخلاص واسم الله (الصمد) مستحضرة المعنى القائل (أنه من تصمد إليه الخلائق).
كنت أرددها وأبكي بلا نحيب، ولم أشعر بحرقة تلتهم وجهي ورقبتي كحرقة دموعي تلك الليلة، استشعرت وهني وشتاتي وهشاشتي، ولجأت إلى قوته ورحمته وحنانه سبحانه، ولم تعاودني بعد تلك الليلة نوبة هلع ألبتة.

الجسد الغريب

يجتاحني خوفُ العصافيرِ التي
نسيت مدى التحليق من أن تُطلقًا

سعود اليوسف

لم يكن للفقد أحزانه فحسب، بل كان له غرائبه ومفاجآته أيضًا، وفي الأيام الأولى منه، اعترتني رغبـة عارمة وغريبة بتغطية الأجزاء الظاهرة عادة من الجسد كالذراعين وشيء من الساقين، ووجدتني أواجه إرباكًا في علاقتي بجسدي، فبتُّ لا أنام بثياب مخصصة للنوم بل أرتدي ثيابًا بأكمام طويلة، وأقمشة غير مريحة للنوم، وإذا ما رفعت أكمامي للوضوء تأملت ذراعيّ بشـيء من الاسـتغراب وفقْـدِ الشـعور بالحماية، وكنت أتفادى النظر إليهما، تمامًا كما تفاديت النظر قبلها إلى وجهي في المرآة لأنه يذكّرني بإبراهيم.

وبعد أن كنت أدقق في خياراتي لملابسي ومظهري وشعري قبل أن أخرج من غرفتي طيلة سنوات مضت، أصبحت ألتقط أيّ لباس يصادفني عند فتح خزانـة الملابس وأرتديه، وبعد أن كنت لا أكرر لباسًـا ليومين متتاليين أصبحت أمدُّ يدي وأتناول أي لباس كنت قد ارتديته قبلها بيوم وعلقته على المشجب، ولأني هجرت النظر للمرآة فلم أنتبه أنني كنت أرتدي ملابسـي التي التقطتها من المشـجب أحيانًا مقلوبةً حتى تنبهني إحدى بناتي أنها كذلك!

وكنت إذا أويتُ إلى فراشي في تلك الأيام أجمع بعضي إلى بعضي

وألتفُّ على نفسي في وضعية تشبه وضعية الجنين في بطن أمّه، دون أن يشعرني هذا بالاحتواء، فقد كان شعور المتكوّم على نفسه في بيداء ظلماء قاحلة، لا صاحب له فيها ولا أنيس.

وعندما عدت وأولادي إلى الرياض وتعطلت إحدى الكاميرات الأمنية للمحيط الخارجي للمنزل أخذ القلق يفترسني، ولم أكن معتادة على التنسيق مع الفنيين والعمالة عمومًا، فاتصلت بأخي وطلبت منه الحضور إلى الرياض لمعالجة الأمر ففعل، ولم يسكن قلقي حتى عادت الكاميرات إلى العمل من جديد.

وبلغ شعوري بفقدان الحماية، والذي استمرَّ لأشهرٍ من الوفاة حدًّا جعلني أرتجف فزَعًا عندما ذهبتُ مع ابنتي إلى متجر (إكسترا) لابتياع بعض الحاجيات من هناك، فتركني السائق الذي كنت قد نقلت كفالته إليّ مؤخرًا وقفَل عائدًا إلى المنزل، وكنت قد أوصيته أن ينتظرنا ولا يغادر المكان حتى ننتهي ونخرج إليه، لكنه لم يفعل وغادر وتركنا ننتظر، فهجم علي القلق، على أن لا شيء يدعو إلى القلق والتوتر؛ فالمكان ليس ببعيد، والسائق جديد وربما أخطأ التقدير، أو لم يفهم المراد، أو أي سبب آخر، لكنني لم أكنِ مستعدة للتعامل مع هذا النوع من المفاجآت وإن كانت صغيرة ومعتادة.

فصدمة الفقد تخلّف إحساسًا بالانكشاف ولا أقول شعورًا بالانكشاف فحسب، بل إحساس بالمعنى المادي أيضًا، والانكشاف مُشعرٌ بعدم الأمان.

وقد أدى ذلك الشعور بالانكشاف إلى رد فعل عكسي، تمثل في ارتيابي في الآخرين وفقدان الثقة بأحكامي عليهم، وأصبح شعوري

بأنني مرئية حتى النخاع مصدر قلق لي، وخشيتُ أن يبصر الآخرون مواضع ألمي، والثقوب التي خلَّفها الفقد في قلبي، فيلِجون منها إلي، وتفاقم خوفي من أن أصبح كجرح مكشوف معرض للإصابة بأي صنف من صنوف الأذى، خشيتُ من التسمم بالشك وسوء الظن في سلوك الآخرين تجاهي، خشيت من استغلالهم كربي، وخشيت من التعلق المرَضي بالأشخاص، فدفعتني هذه الشكوك والمخاوف إلى دفع من يحاول الاقتراب مني بعيدًا.. بعيدًا..

واستمرت هذه الحال أشهرًا فلم أكن مستعدة في تلك المرحلة لعقد صداقات جديدة، أو المشاركة في مشروعات معرفية، وكان الاعتذار عن المشاركات الثقافية، وإعدام أية صلة جديدة بعد وقت قصير جدًا منها، هو الإجراء الحاسم الذي كنت أُنهي به كل محاولة للاقتراب من ذاتي المعذبة، وكانت العزلة المتكررة من وقت لآخر شكلاً من أشكال حماية الذات من كل صور الانتهاك المعنوي المتخيَّلة.

برزخ بين حياتين

اغتراب

الريـحُ مزَّقَـت الـشراعَ
فأيـن يـضربُ زورقي؟
والموجُ أطفأَ ضوءَ مصباحي
فـماذا قـد بقـي؟

نازك الملائكة

أن ينتقل الإنسان من أسلوب حياة مُعيَّن إلى آخر، يعني أن يتخلى أحدنا عن جزء من عاداته وما طبعه عليه نمطه السابق، ليدخل بإرادته في خضم جديد لم يألفه بعد، لكنه وطّن نفسه على تحمل تبعاته. وعندما يحدث هذا الانتقال جبرًا، أي بغير إرادة الإنسان واختياره، تمسي النقلة أعسر منها اختيارًا، فالصدمة قد أكلت منه ما أكلت، ولم تفسح له وقتًا للتهيؤ لما سيقابله، ولولا نعمة الاعتصام بالله واللجَأ إليه وطلب العون والتسديد والقوة منه، لما ملك أحدنا احتمال حدّة هذه النقلة الهائلة.

وشتان ما بين فقد وفقد، فإذا كان الزوج اتكاليًا ومفرّطًا بواجباته تجاه أسرته، ويُحَمّل زوجته العبء الأكبر من واجباته فضلاً عن واجباتها الخاصة وواجباتهما المشتركة، فحينها يصبح فقد الصاحب شكلاً من أشكال الخسارة الخاصة، لا انهيارًا لحياة بكاملها كانت تتكئ عليه.. فإذا اجتمع إلى هذا وجوده الوهّاج في أسرته كان فقدُه تبددًا وانطفاءً لا انهيارًا فقط!

والاشتباك بالحياة وتحمل مسؤوليات أسرتي قاطبة، ومواجهة مواقف

لم يسبق لي خوضها، هذا ما كان بانتظاري، وأن تفقد عزيزًا ثم لا تمنحك الظروف الوقت الكافي لاستيعاب الفقد، وتدفعك لعيش تجربة لم تظنك يومًا ستخوضها، هذا ما كان علي تقبله باعتباره قدرًا وخيارًا، قدرًا لا فرارَ منه، وخيارًا لم أكن لأتردد في الإقدام عليه.

والمزيج العجيب الذي وجدتني فيه على أرض الواقع، انعكس في حافظة الصور في هاتفي الجوال وملحوظاته، حيث جمع هاتفي صور الكتب والملحوظات والقصاصات البحثية جنبًا إلى جنب صور وملحوظات ووثائق ومنتجات خاصة بالسوبر ماركت، والصيدلية، وورشة إصلاح السيارات، وقطع الغيار!

والأكثر إثارة للسخرية هو لغتي التي أشعرتني بحجم المسافة بين مكتبتي وعالمي السابق بكل تفاصيله، وبين واقع التعامل مع الآخرين من مُقَدِّمي الخدمات المختلفة في المتاجر، والورش، والمؤسسات، والبنوك.

فقد كنت أتعامل سابقًا مع عالم أُشكله وأعيد صياغته وتأويله وفقًا لمتطلبات ومعايير نظرية غالبًا، عالم قابل للسيطرة والضبط، فوجدتني في قلب الموجة وعلى أجنحة العاصفة وبين يدي الريح.. مصطدمة بعالم مفارق، تحكمه عناصر عديدة، عالم متحرك بغير نظام أعرفه، عالم لا مكان فيه للغتي ولا يتقبل أشكال الحجاج التي تعودتها.

وإن كان من معنى للاغتراب هنا، فقد وجدتني أنماع فيه بكلّي.. وأتساءل هل كان العيب في نمط الحياة المريح الذي كنت أعيشه؟ أم في اندماجي بالمعرفة وأهلها إلى حدّ إعاقتي عن التواصل الاجتماعي الفاعل مع طبقات متباينة وشخصيات لم تكن مرئية لي من قبل؟

هل كان لزواجي المبكر وإفراط أسرتي في حمايتي من مواجهة العالم الخارجي في صباي، وانتقالي بعدها للعيش في كنف زوج لم يكن يكلفني بأي مسؤولية تتعلق بدنيا الناس، أكان لهذا كله أثر في انفصالي عن ذلك العالم حد الاصطدام بخبرتي السطحية بتفاصيله الواقعية؟

وهل كنت متواطئة مع هذا الوضع المريح لانسجامه مع طبيعة شخصيتي القارئة والباحثة والكاتبة؟ كانت تلك التساؤلات تلتف حولي وتشد من قبضتها عليّ كحبل مشنقة!

ولأنني كنت شديدة الأنفَة وأتحسس من الإثقال على الآخرين مهما كانوا مقربين مني، فقد كنت أتألم عندما أضطر لطلب أية خدمة يسيرة، وإن كانت على سبيل الاستعلام عن كيفية أداء إجراء ما مثلاً، لكن ظروفي الطارئة أجبرتني على هذا الأمر، واضطررت للتعايش مع التضاد ما بين مشاعري وواقعي، أو رغباتي واحتياجاتي، وهذا أيضًا أشعرني بالاغتراب عن ذاتي السابقة.

الحداد .. فرض النسيان

ستكونُ وحدَكَ قدْرَ ما لم يحتملْ
أحدٌ، ولو كان الجميعُ معيِّتكْ

أحمد بخيت

يبدو أن البحثَ في أدبياتِ الحـدادِ عند المرأة بحثٌ في المفقود، وغاية ما ينتهي إليه البحث هو أحكام فقهية، وترجيحات، ودفع أوهام وتصورات وعادات شعبية خاطئة؛ إذ لم أصادف فيما قرأت من الكتابات العربية في الفقد شيئًا يتصل بالذات الممثلة للأحكام والمتعرضة لتغيُّر أوضاعها الاجتماعية والقانونية والنفسية، وتحيا تجربة مركبة وجدانيًا واجتماعًيا ولا تقتصر على الفقد العاطفي فحسب؛ وبدا لي أن صمت النساء حيالها غريب وكأن الحداد فترة محكومة بالنسيان مسبقًا.

وفي حوار مع إحدى أستاذاتي عن أدبيات الحداد، سألتها عن تدوين تجربتها في فقد زوجها، فأكدت الفكرة نفسها: دفن الأفكار والمضي قدمًا.

رغم أن هذا المضي والإغضاء عما تواجهه الأرملة في هذه المرحلة لا يعدو في تجربتي من أن يكون شكلاً من أشكال التظاهر والإنكار الذي نسلكه دون أن نكون على وعي عميق به، وكأنه وسيلة من وسائل حفظ الذات من التردي في هاوية التذكر، تمامًا كما اختصرته جوان ديديون بقولها: العودة إلى الوراء هي ما يُتيح للحياة أن تُطيح بك.. أن تسحقك!

وفي عدة الوفاة لم أنشغل بما يجوز وما لا يجوز للمعتدة من أحكام أو ما يباح لها إتيانه من لباس وتجمل وما يتصل بهذه الأمور التي كنت قد درستها في كلية الشريعة ولا تخفى على أي دارسة للفقه، أو من عايشت خبرة الحداد مع قريبة أو صديقة، على أنني لم أواجه ما يدفعني لاستحضار تلك الأحكام التفصيلية أصلاً، رغم أنني لم أعايش حدادًا من قبل، فالوفاة الوحيدة التي تفتح وعيي عليها كانت وفاة جدي لأبي رحمه الله، وكنت وقتها في الخامسة من عمري، ولا أذكر شيئًا منها عدا كثرة المعزين والمعزيات الذين قدم كثير منهم مع أطفالهم من المدينة المنورة وينبع وأملج ونواحيهما، وكنتُ منشغلة بالتعرف إلى صغيراتهم واللعب معهم، ثم توفي جدي لأمي رحمه الله وكان قد انتقل مع عائلته إلى مدينة الخبر في المنطقة الشرقية بعد سنوات من وفاة صديقه جدّي لأبي، وكنت وقتها في العشرين من عمري، لكنني سافرت مع أمي وزوجي رحمهما الله لعزاء أخوالي وخالاتي هناك وبقيتُ أيام العزاء الثلاثة ثم رجعت وإبراهيم وبقيت أمي عند جدتي أشهر حدادها، أي أنني لم ألحظ ما كان يحدث، أو كيف تقضي المعتدة هذه المرحلة البرزخية بين مرحلتي ما قبل الفقد وبعده.

وغاية ما كان يشغلني بعد وفاة إبراهيم هو الأوضاع النفسية لأفراد أسرتي، ومصير إبراهيم الأخروي بالاطمئنان حول ما يتعلق بذمته المالية وتفقد ما قد يكون عليه رحمه الله من التزامات أو ديون قديمة أجهلها، وأما ما يتعلق بمظهري وبقية الأمور فلم أكترث بها، لا لمعرفتي بما يتصل بها من أحكام فحسب، بل لأنني كنت عازفة عنها بطبيعة الحال.

ومع ذلك فلم تخلُ مجالس العزاء وما بعده من الموضوعات المتعلقة

بأحكام المعتدة، ومن ذلك ما أثارته إحدى المعزيات حين زارتني بعد وفاته رحمه الله بشهرين، وسألتني عن حكم احتساء القهوة بالزعفران للمعتدة المعتادة على تناول القهوة منكَّهةً به وقد تعاني صداعًا بإقلاعها عنه، وأذكر أنني تحدثت معها عن الحكم من ناحية تفرقة الفقهاء بين الزعفران المطعوم وغير المطعوم كالمستخدم في الأطياب قديمًا، واختلاف حكم الأخير عن الزعفران المطعوم.

كنت أحدثها عنه في الوقت الذي فقدتُ فيه الاستمتاع بمذاق الأكل والشرب وتساوت عندي النكهات، وما أتناوله كان قوت من يتقوى للقيام بمسؤولياته لا أكثر.. فمن كانت مثلي لا تملك رفاهية التساؤل حول فروع كهذه، مثلما لم تملك الاستغراق في أحزانها الذاتية وغض النظر عن أولادها، لقد كنت ذاهلةً عن هذا كله، وكنت ساعتها أشبه بطير جريح يفردُ جناحيه ليحمي بهما صغاره.

وقد بدأت فيما يتحتم عليَّ من إجراءات في بدايات تلك الفترة، كاستخراج صك ولاية على القُصَّر من بناتي وأبنائي، واستصدار سجل أسرة جديد، وإجراءات أخرى تتصل بالأوضاع القانونية المتغيرة بعد وفاة الزوج، كرتيبات تصفية الحقوق المالية من الشركة التي كان يعمل فيها رحمه الله، وما يتعلق براتب المتوفى، وقد نهضتُ لهذا كله، وتجلدت لإنجازه بحذافيره، في وقت لم تكن فيه أتمتة كل تلك الإجراءات اتخذت شكلها الحالي.

وأفرغ الله علي عونًا وصبرًا، وظننتني تجاوزت القنطرة، لأنني تمكنت من التعامل مع إبراهيم بوصفه متوفيًا، وتمكنت من استعمال ضمير الغائب الذي ما كنتني أتخيل أن أستعمله عندما أتحدث عنه، لكنني لم

أدرك هشاشتي الداخلية حتى أرسل لي أخو زوجي سجل الأسرة الجديد، وقد أزيلت منه صورة إبراهيم، ووضِع محلها مربع فارغ كُتب وسطه كلمة (متوفى) وكتب بجانب اسمي (أرملة)!

كنت أضعف مما أتصور، وفاقَ تأثري وألمي احتمالي وقتها، فإزالة صورة إبراهيم واجهتني بواقع حسّي ملموس بأن (إبراهيم لم يعد هنا).. وليس ثمة شيء يملأ مكانه.. ليس إلا الفراغ!

وأما وصف (أرملة) فقد عنى لي (البتر) وها قد حصلت على وصف (مبتورة) فالترمل قطعٌ ونقصٌ وتجريدٌ من طرفك الآخر، في حين أن وصف البنوة والزوجية (صلة) ووجودٌ وانتماءٌ إلى طرف آخر، وقد جعلني وصف أرملة في مواجهة واقع الفقد، وكان نعيًا رسميًا لحياتي السابقة في الوقت نفسه.

سلطان الاعتياد وعذاباته

أخافُ أن تُمطرَ الدنيا ولستِ معي
فمنذ رحتِ وعندي عقدةُ المطرِ..

نزار قباني

قلتُ مرة: من لم يتمكن من استرداد عاداته قبل الفقد لم يتعافَ منه بعد.. ومن استردها بسهولة، فلم ينشب الفقد أظفاره بأعماقه...!

ولستُ أبالغ إن قلت إنني بتُّ أغبط من يعيشون زواجًا غير مثقل بأعباء القلب وروابط الصداقة وأكوام الذكريات الحميمة، زواجًا لطيفًا خفيفًا يمكن لطرفيه استئناف الحياة بعد انتهائه بأقل ما يمكن من أوجاع الفراق، بل وصلتُ مرحلة بتُّ أغبط فيها أولئك الذين تضمحل ذاكرتهم تحت تأثير فكرة البقاء الداروينية، فيبدلون الأشخاص كما يبدلون الثياب والأحذية والمستحضرات، وأولئك الذين يفلسفون التجاوز بشتى الطرق ليُجسِّروا الهوة بين ما يعلمون وما يشعرون!

صدقًا، بت أغبط أولئك الذين أقصى ما يدركونه من الفقد هو البُعد الجسماني فقط، ولا يدركون فقدَ ما تمازج بأرواحهم، وأنى لهم ذلك، ولم يكُ ثمة تصور ولا عيش حقٍ لهذا التمازج! فلمثل هؤلاء يسهل خلع حياة وارتداء أخرى، في حين لم يبقَ لغيرهم سوى التطلع إلى بلوغ لحظة الاعتياد لا غير.. اعتياد بترهم وتشظيهم وتناهيهم.

وعندما يتشارك الزوجان عادات معينة يصعب جدًا على أحدهما

ممارستها دون حضور الطرف الآخر، وكم تشاركتُ وإبراهيم من عادات وثَّقَت صلتنا ببعضنا البعض، وجعلت من عذابات الفقد محاولة التلبسَ بالعادة دون وجود طرفها الآخر، ويبدو أن العادة كبيتٍ يجذب إليه ساكنه وإن لم تكن سكناه مخططًا لها، وكانت عاداتنا تتخلَّق رويدًا رويدًا، وبأشكال مختلفة، وربما هيَّأت لها بعض الظروف أن تنشأ وتنمو وتترسخ، إذ عشنا بعيدًا عن عائلتينا في السنة الأولى من زواجنا؛ ولما كان إبراهيم يكبرني بست سنوات فقد تخرج من الجامعة قبل موعد الزفاف بعام، وتقدم بطلب وظيفة في أقرب منطقة لأهلنا عندما لم يحظَ بوظيفة متاحة لتخصصه فيها وقتئذ، فعُيِّن في شركة الكهرباء بمدينة تبوك، وهناك سكنا أول شقة تجمعنا تحت سقف واحد، وهذا البُعد المكاني هو ما وثَّق صلتنا ببعضنا البعض.

وكان من عاداتنا في عطلة نهاية كل أسبوع من بداية زواجنا الخروج في هدأة الليل والتجول في السيارة لساعات، لا نتحدث فيها إلا قليلاً، ونحن نستمع لأغاني فيروز بعد أن رحَّلناها إلى صوتِ ليلي، وكنا نختار لذلك طريقًا من طرق السفر بين المدن، لا يقطعه شيء، وغالبًا ما كان (طريق تبوك-المدينة). كانت عادة بسيطة لكنها عمَّقت ارتباطنا، واغتناء أحدنا بوجود الآخر إلى جانبه، ورغم التوقف عن الاستماع لفيروز ليلاً فما زال صوتها وهي تغني (سوا ربِينا.. سوا مشِينا.. سوا قضَّينا ليالينا.. معقول الفراق يمحي أسامينا، ونحنا.. نحنا سوا ربينا) يتردد صداه في سمعي كلما استعدتُ ذكرى جولاتنا في تلك الليالي.. والطريف الأليم أننا كنا نواصل الخروج معًا حتى وإن كنا متخاصمين.

أما عادة القراءة المشتركة فقد دخلت إلى حياتنا تدريجيًا، وبدأت في

فترة الملكة (عقد القران)، التي تمت بعد ستة أشهر من الخطبة واستمرت لسنة ونصف بعدها، وكنا لا نلتقي خلالها إلا في وقت الإجازات الدراسية؛ إذ كان يأتي لزيارتي ويجلس معي لساعتين، ثم تضاعفت الساعتان إلى أربع، ثم أخذت تمتد لساعات طويلة كلما اقتربت الإجازة من نهايتها، محاولاً ألا تضيع منها ساعة دون رفقتي، فأثار هذا غيرة إخوتي، فأفصحوا لأمي عن اعتراضهم على جلوسه الطويل عندي، رغم أنني زوجته على الحقيقة وإن لم أُزفّ إليه بعد، ورغم أنه لم يكن غريبًا وإنما هو ابن عمي الشقيق لوالدي والمسمى على اسمه، ورغم أن إخوتي كانوا يأتون لمجالستنا باستمرار.

لكن أبي كان شديد الوضوح في موقفه الرافض لتحديد وقت جلوسنا معًا، فقد منعه جدي لأمي رحمه الله من عقد القران قبل الزفاف وبقي أبي يذكرها له متأسفًا لحرمانه من تلك المرحلة، فلم يرغب أبي بحرماني منها، وقد بقينا نتذاكرها أنا وإبراهيم حتى سنواته الأخيرة معي، وكان أبي حريصًا على مصلحتي، فرغم أنه كان ابن أخيه الشقيق، ورغم موافقتي على الزواج، فقد اشترط أبي في عقد الزواج تمكيني من مواصلة الدراسة والوظيفة بعدها، وقال لي: قبل عقد القران: ما من رجل يعقد قران ابنته قبل سنة ونصف من الزواج إلا وهو يثق بحكمتها حقَّ الثقة وأنا أثق بحكمتك يا ملاك. ولم يكن هذا بغريب على والدي رحمه الله فمنه استمددت العزم والطموح والمثابرة، فقد أصيب أبي بالحصبة في الثالثة عشرة من عمره وفقد سمعه بسببها، وأُجريت له عملية جراحية في أذنه المرجوّة في القاهرة وكانت نسبة نجاح العملية ضئيلة فباءت نتائجها بالفشل. فاستعان بالسماعات الخاصة بالصم، وعاصر كل أنواعها بدءًا من سماعة الجيب وحتى آخر سماعة سافر إلى باريس من أجل الحصول

عليها، وكانت سماعة صغيرة توضع خلف الأذن ولا تكاد تلحظ، وبسبب السمع تعرض والدي للتنمر، وبسبب السمع لم يتمكن من مواصلة دراسته أول الأمر، ثم عاد للدراسة وطوى الثلاث السنوات في سنتين، وعمل وتزوج من أمي وواصل الدراسة انتسابًا في قسم علم الاجتماع بجامعة الملك عبد العزيز في جدة، وتخرج لاحقًا ليحاول مواصلة الدراسات العليا انتسابًا لكنه تعثر بعدم إتاحتها انتسابًا حينذاك.

وبعد رفض أبي تحديد وقت مكث إبراهيم معي وقت الإجازات، كان إبراهيم يأتيني الخامسة مساء، ولا يخرج أحيانًا إلا السابعة صباحًا، وكان وقتًا طويلاً، اعتدنا أن نتناول خلاله وجبة العشاء سويًا ووجبات خفيفة متفرقة، وكنت وقتها أخجل من الأكل أمامه فكنت أتناول اليسير، وبعدما يغادر أركض إلى المطبخ مباشرة وقد قتلني الجوع فأفتش عما كنت قد تركته سابقًا في طبقي، أو أبقته لي أمي، أو أية حلويات أو موالح تصادفني.

وخلال ذلك الوقت كنا نتشارك أشياء كثيرة من بينها قراءة الشعر، فقد كان يحب أن يقرأ لي الشعر، وكان بارعًا في إلقائه فكنت أستعذب هذا الوقت، وشيئًا فشيئًا جرأني على قراءته له، وأصبحنا نتداول الدواوين، وكان مثلي محبًا للشعر الحديث، ولم يكن قد اكتشف بعد أني محبة للأدب الروائي العالمي، وحدث هذا مصادفة عندما عاد أخي الأكبر من سفر إلى عمّان، وجاء للسلام على إبراهيم لما رأى سيارته أمام الباب، وبين يدي أخي ثلاث روايات أحضرها لي من سفره، فرأى إبراهيم سعادتي الغامرة بها، رغم محاولتي التحفظ وعدم إظهارها كلها، ورغم أنه كان يزورني محملاً بالهدايا وكنت أشكره عليها وأحتفي بها، لكنني

كنت أخجل من فتحها أمامه، وأحاول أن أمتثل لوصايا أمي بالهدوء والاتزان في ردود الأفعال، لكنني كنت في السادسة عشرة من عمري وقتها، وكنتُ مرحة، وعفوية، وممتلئة بالحياة، لذا حين فاجأني إبراهيم بعد أيام باثنتي عشرة رواية أحضرها لي من عمّان، فرحتُ فرحًا بالغًا نسيتُ معه خجلي واتزاني وكل وصايا أمي، ولم أجلس على الأريكة بل تربعتُ على الأرض مباشرة، ووضعتُ الكتب أمامي وأخذت أقرأ عناوينها بصوت مسموع وأنا أضحك بصوت احتفالي، وأردفه بقولي شكرا شكرا،....، ومنه إلى العنوان الآخر فأقرؤه وأضحك وأكرر شكرا شكرا...ثم جمعتها ورتبتها ورفعتُ رأسي إليه لأسلم عليه فقد نسيت السلام حين شاهدتُ الكتب، وكان ما زال واقفًا وقد طوّقَ جسده بذراعيه، ويبتسم لمنظري المجنون وضبْطي متلبسةً بالفرح.. لقد اكتشف شغفي، ومن وقتها دخلت الكتبُ إلى حياتنا.

وبعد الزواج تنوعت قراءاتنا وتوسعت إلى مجالات أخرى، ولأن الوقت الذي يقضيه في العمل كان طويلاً جدًا، فقد كنت أخلو بالكتب في هذا الوقت، وإذا دخل البيت عند عودته من العمل ووجدني أقرأ، يقول: تبدين مستمتعة، ومنظرك يحمسني للقراءة؛ وعندها بدأ يشاركني قراءاتي المعرفية الناشئة ببطء آنذاك، لكنه لم يغرق غرقي في البحث فيما يتعلق بسؤال المرأة.

وكان من عاداتنا القراءة سويًا في المكان نفسه، في الصالة أو مكتبة المنزل، أو أثناء السفر إلى الخارج، وتشارُك الأفكار، إن كان الكتابين اللذين نقرأهما مختلفين، أما إن كانا لنفس المؤلف فالحديث عنهما والمناقشة فيهما يغدوان أروع وأشد حماسًا. وكنت إذا كتبت مقالاً أو

بحثًا أُحدّث إبراهيم عن أفكاري التي سأبثها فيه، وأستشيره في العناوين وأحاوره في مقترحاته حولها، ويحتل الحديث عنها -طيلة فترة عملي عليها- جزءًا من مساحة أحاديثنا اليومية، وعندما بدأتُ بدراسة أعمال إدوارد سعيد في أطروحة الدكتوراه ضمن دراستي لنظرية ما بعد الاستعمار، كان إبراهيم على إلمام بالأفكار التي أتناولها والإشكالات التي تشغلني أثناء البحث والكتابة، وكان إذا علم باحتياجي إلى مرجع لم يتيسر لي العثور عليه يجتهد في تمكيني من الحصول عليه بكل طريقة، حتى أصبحت له شبكة علاقات بموظفي المكتبات والأصدقاء الذين يساعدونه في الوصول إلى الكتب والمراجع داخل المملكة وخارجها.

وكانت العادة الأكثر إمتاعًا هي تشارك قراءة كتاب واحد نتناوب على قراءته لبعضنا البعض. وغالبا ما يكون رواية لمناسبتها لأجواء السفر، وكنا نقف ونضحك كثيرًا حين يخطئ أحدنا في قراءة اسم أو كلمة، ونستصحب التندر على الخطأ حتى آخر جلسة قراءة.

ومن عاداتنا الطريفة أننا كنا نحب أن نكتشف في أي مدينة نزورها للسياحة أماكن نعقد معها صداقة ونجعلها سرَّنا الخاص، فنتردد عليها إذا عاودنا زيارة تلك المدينة، ولا نحدث عنها أحدًا إذا عدنا من السفر، كأن نتعرف على مقهى جميل في شارع جانبي هادئ، أو متجر لبيع الورود وبطاقات الهدايا، أو مطعم مميز، أو حتى عربة مثلجات.. وقد كان الأمر من الطرافة بحيث كنا نحترمه فعلاً ونتعامل معه كأي سِرٍّ من أسرارنا الصغيرة الأخرى.

ومن عاداتنا الخروج للتنزه بالسيارة عند نزول المطر وملاحقة السُحب الممطرة حتى آخر غيمة.. وآخر قطرة..

كنا نشرع نوافذ السيارة لنملأ صدورنا برائحة المطر لحظة ملامسته الأرض بعد طول عطش، ونمسك بأيدي بعضنا، ونمضي ساعات نتجول تحته، وإذا استمرَّ هطوله أيامًا كنا نكرر جولاتنا طيلة تلك الأيام، فلم يكن المطر حدثًا عابرًا بالنسبة إلينا، بل حدث حريٌّ بأن نحتفل به بكل صور الاحتفال.

وكنت إذا استمتعت بنزهة في سنوات زواجنا الأولى أتمنى لو شاركتني فيها شقيقاتي الأصغر مني، إذ كنت أكبرهن والمتزوجة بينهن، وكان إبراهيم يقرأ ما يدور في ذهني ويشعر بما يموج في وجداني دون أن أتحدث به، فكان يلتفت إلي ويسألني أتحبين أن نصحب أخواتك معنا، فأبتهج وأوافق شريطة أن نذهب لاصطحابهن بعد أن نقضي بعض الوقت وحدنا، حتى ارتبط المطر لديهن بعد زواجهن بخروجهن معي وإبراهيم.. ثم تزوجت شقيقاتي الواحدة تلو الأخرى، وبقينا نصحب من بقيت منهن معنا، ومع مجيء أطفالنا أصبحنا نصحبهم أيضًا.. لقد كانت علاقتنا تتفجر بالبهجة وتتسع وتشمل بها الآخرين.

ومضى كل ذلك ويدي في يده...! وهي العادة الأكثر انغراسًا، هي لغة التواصل الصامت، والمغنية عن الكلام، وكان يمكننا أن نقطع مسافات طويلة ونحن صامتين، فقد كان يكفينا اشتباك أيدينا، ولم يكن هذا حكرًا على التجول وقت المطر، كانت عادة ارتبطت عندنا بركوب السيارة، حتى كان ابننا عمر يشاكسنا أحيانًا بمحاولة فك أصابعنا والمباعدة بين أيدينا، وكان في حديث الأيدي ما يفي ويغني عن الكلام والعتاب والاعتذار، كان حديثًا يسري من أيدينا إلى قلبينا مباشرة.

هكذا كنا، وهكذا استحال كل ذلك الدوي المالئ حياتي إلى سكونٍ

كئيبٍ بعد رحيله..

أما أوجع تلك العادات التي لم أتمكن من استردادها إلا بعد أكثر من سنتين من وفاته، فتلاوة الورد القرآني قبيل صلاة العشاء، فقد كان من عادتنا تلاوة الورد سويًا على نفس الأريكة ورأسانا يتكئان أحدهما إلى الآخر، فلم نكن نجلس على مقعدين منفصلين أبدًا، وكانت عادة عفوية ما لبثت أن ترسخت حتى في حال حضور المقربين كإخوتي، لذا عندما حاولت العودة للتلاوة في نفس الوقت لم أتمكن، وتعثرت بذكراه، وعانيت طويلاً، كنت أشعر بغصص تتزاحم في حنجرتي كلما تلوت والآيات تأبى الخروج منها، والدموع تنهمر على وجنتي، وغدوت أشبه بالطير الفاقد لصاحبه، لا يُحسِن عيْشًا ولا يملك موتًا؛ لذا كان لزامًا عليّ تغيير وقت تلاوة الورد، فغيرته إلى وقت لم نكن قد غرسنا فيه تلك العادة ورَوَّيناها حتى صعُب عليّ لا اجتثاثها وحدها، بل اجتثاث كل ما يلتفّ بها من مشاعر، وحضور، وذكرى.

حنين الأمكنة ..

نحنُ لا نحنُّ إلى المكان
ولكن إلى الزمن
الذي عشناه في ذلك المكان
وذلك الزمن قد ضاع بشكل لا رجعة فيه
وإلى ذلك الزمن لا يكون أبدًا
من الممكن الرجوع!

أنطونيو بريتي

مِن عجائبِ المدن الصغيرة أن أحسـن ما فيها هو ذاته أسوأ ما فيها، وهو بطء مسيرة التغيُّر وثبات الزمن والأشياء نسبيًا، على أن ما يُعاب في تلك المدن الهادئة بإيقاعها البطيء الرتيب هو ما يميزها؛ إذ تتوثق صلة إنسانها بالطبيعة، وتتنبَّه حواسه للتغيرات الطارئة في أحوالها، هذا عدا ما ينجم عن التأمل فيها من سعة أفق، وانشراح صدر، وذوقٍ للجمال.

ولما كنت طفلةً نشـأت في أحضان الطبيعة وكبـرت فيها، فقد نِلتُ حظي من صداقتها، ولستُ أعني بالطبيعة ما يتبادر إلى الذهن من سهول خضراء، وشلالات دافقة، وجبال شاهقة، وأشجار على مدّ البصر، فهذا التصور (الكرتوني) للطبيعة يصدق على بلاد هايدي في المنطقة الخلابة الواقعة على امتداد سلسـلة جبال الألب الأوروبية، وليس يشبه هذا ما عنيتُه من قريب أو بعيد، فإنما عنَيتُ الطبيعة التي هي قسـمةٌ بين البشر، كالظواهر الكونية المتكررة والتي يتعاقب فيها الليل والنهار، ومواسـم السنة، ويدور فيها القمر دورته الساحرة.. الطبيعة التي يتشارك فيها أهل الأرض جميعًـا، ولا يتأتى لأحد منهـم التمتع بها قدر ما يتأتى لسـكان

الصحاري، والأرياف، والقرى، والمدن الصغيرة، ولا أعني بهذا افتقار أهل المدن الصاخبة القدرة على استشعار عظمة تلك الظواهر وجمالها، ولكن تشغلهم سرعة إيقاع الحياة عن عقد علاقة تأملية وجمالية معها، ويحرمهم التغير المتسارع من ملاحظة تغيراتها البطيئة، كما تحجبهم الكتل الأسمنتية الضخمة من أبراج وبنايات شاهقة عن تأمل ما يعلوها، وكأنما هذه هي الحال في أيّ مكان، تتسعُ المدن فتضيقُ المساحة التي يُطلُّ منها إنسانها على السماء.

وقد بدأت علاقتي بالطبيعة في أواخر سن الطفولة، حين كنتُ وشقيقتي هلا، التي تصغرني مباشرة، نتمنى أن يؤذن لنا بالسهر حتى نرى انبثاق الفجر في السماء، وكان لا يُسمح لنا بهذا إلا في رمضان لمصادفته الإجازة الصيفية؛ إذ الليل قصير والكل مستيقظ، ولم نكن نرضى بنصيبنا هذا من رؤية الفجر، فكنا نحتال لرؤيته أوقات المنع من السهر بصنع قهوة وتخبئتها في دولاب غرفة نومنا لنتمكن من احتسائها خفية فتمَكِننا السهر وبلوغ المنى، وإذا برائحتها الفواحة تفضحنا وتسوق أمي إلينا لتصادرها، وتُمني جريمتنا البريئة بالفشل!

كان يفتننا في الفجر ميلاده المتأني، وشفقه الخمري، ونجمة الصبح التي تلمع في سمائه. النجمة التي أصبحت بعد عقد قراني وإبراهيم موضوع اهتمامنا وسرّنا الحبيب، والرمز الذي يربطنا ببعضنا وإن فرّقتنا الأماكن.

وعندما انتقلنا إلى الرياض لمواصلة الدراسات العليا لاحظتُ الفارق التي يضفيه المكان على الظواهر الطبيعية، فرغم أن الفجر هو الفجر في كل مكان، فقد فوجئت بفجر الرياض لا يلبث أن ينبلج، وبضوء الشمس

يكتسح السماء والأرض بسرعة تفوق تلك التي كان يستغرقها ميلاد الفجر في الشمال.

وكنت إذا رافقت إبراهيم للتجول بالسيارة في شوارع العاصمة وحدَّثته عن طقس ذلك اليوم، عن غيومه المتناثرة، أو سمائه الصافية، أو الشمس التي على حرارتها تبدو بعيدة في أعلى نقطة في كبد السماء، بعكس شمس القريات التي كأنها تعلو رؤوسنا مباشرة، أو حدَّثته عن العصافير التي ازداد تغريدها مع قرب الربيع، أو لفحِ رياح الخريف الباردة الجافة، يقول ضاحكًا: ستنسين كل هذا إذا قدتِ السيارة. يعني أن الزحام سيخطف اهتمامي وتركيزي ويستأثر بهما، وقد كان محقًا.

فنحن صنيعة الأماكن التي نولد بها، وأسرى الأماكن التي نسكنها أو نعقد صلات إرادية معها، مريدون وغير مريدين، هكذا تتجلى علاقتنا بالمكان، وهذا موقفي منه، وكان تقديري للعلاقة بالمكان يتفق مع ازدرائي النمط الاستهلاكي الذي دمَّر صلتنا بالأماكن ومزَّق الروابط الزمنية بيننا وبينها.

وعن صلتنا بالأماكن كنتُ قد كتبت قبل تسع سنوات من وفاة إبراهيم رحمه الله: (قد يتجاوب أحدنا مع ثقافة عصره الاستهلاكية فيتجاوز الأشخاص، والأشياء، والأماكن برتابة وألفة من يتناول قهوته الصباحية في فنجانٍ ورقي لا يلبث أن يتخلص منه، ويتناول غيره في اليوم التالي وكأنَّ شيئًا لم يكن!

وقد يُبتلى أحدنا بذاكرة تاريخية ترفض هذا المنطق الاستهلاكي فتحتفي بالأشخاص، والأشياء، والأماكن.. وكل ما تشدها إليه رابطة زمنية تكسبه قيمة إضافية. بل حتى الفناجين المنتقاة من أرفف متجر

تقليدي ذات سياحة قد تجد لها محلاً في ذاكرة بائسة تحتفظ بكل شيء. وهكذا هم أبناء البلدات الصغيرة، يحتفظون بوفائهم للتفاصيل الصغيرة، ويسارعون لاحتضان ذكراها لحظة تصادفهم بين صفحات قديمة كطفلة جائعة، مبللة بالمطر، تائهة، وتبحث عن مأوى).

وهكذا كنت أشعر، هكذا تمامًا بعد غياب إبراهيم، فكل الأماكن التي زرناها وأحببناها، واختزنت ذكرياتنا معًا كان لها الحنين ذاته، حتى ذلك المسجد القديم الذي كنت قد سألته أن يصحبني إليه حين كنا نقيم في القريات، وكان فيه درس علمي لأحد الأكاديميين الشرعيين القادمين من خارج المنطقة، وكان أول درس أحضره في حياتي، ذلك المسجد الذي ما زال يجيش له صدري إن مررت بجانبه، يذكرني اليوم الذي شهد إقلاع إبراهيم عن التدخين، وكنت قد رجوته قبلها بأيام أن يخفف منه، ولم يكن يتطاول أملي لأكثر من ذلك؛ فكل من حوله مدخنون، ومن أعرفه منهم حاول الإقلاع عنه لعدة مرات ولم يستطع؛ لذا كنت أتمنى فقط أن يخفف إبراهيم منه وأقنعته وقتها بترك التدخين في البيت فوعدني بذلك، وفي اليوم الثاني من وعده لي وبينما كنت أتأهب للخروج معه للدرس، إذا برائحة الدخان تصلني، فمازحته عاتبة بقولي: إن الله يراك، وليست ملاك التي أخلفت وعدك لها! فجاء إليّ مبتسمًا وأمسك بيدي ووضع فيها علبة الدخان والولاعة وقال: تخلصي منهما.. لن أعود إليه أبدًا!

ولم يعد إليه من يومها، ذلك الرجل ذو الإرادة الصلبة، ذاك الذي لم يكن يفخر بما فيه، ولم يتكثّر يومًا بصفات ليست فيه، ذاك من تعلمت منه الكثير وأدينُ له بالكثير..

وأعلم أن الشروط التي دونها أبي في عقد النكاح لم تكن أبدًا هي ما حملت إبراهيم على مواقفه البيضاء معي، ولا بذل ما بذله تجاهي، وكنت قد أقسمت ألا أعود للدراسة، وكانت اهتماماتي بعلوم الشريعة قد بدأت تتشكل بعد حادثة ترك الدراسة بسنوات، ولأنني نشأتُ في أسرة ليست بأسرة علماء أو مشايخ شريعة، وكان تَديُّن أسرتي فطريًا، وتسنده بعض القراءات القليلة المتنوعة في التاريخ والسيرة النبوية والأخلاق، فقد كنت أحرص على حضور الدروس العلمية المقامة في المساجد والنادرة جدًا في ذلك الوقت؛ إذ لم تكن في القريات مناشط نسائية شرعية علمية أو دعوية، ولَمَّا كانت هذه هي الحال، ولَمَّا لم يُشبع التعلم الذاتي نهمتي للعلم، ولميْلي للتدقيق والتحقق، ومصداقًا لقول القائل: (من كان شيخه كتابه كان خطؤه أكثر من صوابه) فقد كفَّرتُ عن يميني وأتيتُ الذي هو خير، وكان إبراهيم هو من اقترح الفكرة وهاتفني من عمله وأخبرني ببدء التسجيل في الجامعة، وباشر إجراءات تسجيلي بنفسه، فالتحقت بكلية الشريعة بالرياض للدراسة انتسابًا، وبعد تخرجي منها استخرج لي شيخي وأستاذ أصول التربية في الكلية الشيخ عبد الله الزامل رحمه الله تصريحًا بإلقاء الدروس العلمية في القريات، وكنت أول امرأة تحصل على تصريح من وزارة الشؤون الإسلامية لتقديم الدروس العلمية في المساجد، وما زلت أذكر أول درس قدمته في أحد المساجد ضمن برنامج علمي متكامل، فقد كان درسي الأول في شرح كتاب (جامع العلوم والحكم) لابن رجب الحنبلي رحمه الله.

وما زلت كلما زرت القريات ومررت بقرب ذلك المسجد أتذكر كيف كان إبراهيم يذهب بنفسه للتأكد من تعليق برنامجي العلمي هناك، ولا أنسى أنني مررت معه قبل الدرس الأول بيوم لرؤية المصلى النسائي

حيث سأقدم الدروس، فوجدت البرنامج مزالاً بصورة متعمدة ولم يبق منه إلا مُزَق ورقٍ صغيرة عالقة بين غصون الشجيرات القريبة أو يقلّبها الهواء على الرصيف.. فلاحظ إبراهيم أسفي لهذا المشهد، فأخذ بيدي قائلاً أن لا تقلقي سنعاود تعليقه، وكان يمر باستمرار فإذا وجده مزالاً، لم يزد على إعادة تعليق نسخة أخرى منه، على طريقة (وإن عدتم عدنا) دون أن يكترث بهوية الفاعلين، لكنه أدرك مثلي أنه لم يكن مرغوبًا بوجودي هناك، ولا أشك أنه استاء بمثل استيائي من تلك المواجهة الرافضة الصامتة ضدي، لكنه كان حكيمًا وحليمًا فحثني على الصبر والمواصلة، وكان يقول لي المصادمة ستشتتك وتبدد جهدك وتطفئ روحك، فتجنبيها واستمري في طريقك ومادام عملك مرخّصًا به فاصمدي ولا تكترثي وسرعان ما سيملُّ من يريد إبعادك، وقد كان الذي قال.

وبمثل هذه الرابطة الوجدانية بالمكان والتي جعلت من كل بقعة وطأتها قدما إبراهيم ينبوعًا للذكريات، كانت الأماكن تزدهي وتشحُب بحسب ما ترك لنا فيه من نَفْسِه رحمه الله، وهذا ما منع بناتي أن يحببن البيت الجديد الذي كان إبراهيم قد بدأ ببنائه في القريات قبل انتقالنا إلى الرياض، وأكملتُ بناءه بعد وفاته رحمه الله، ليضمهم قرب أهليهم في حال تخطفتني يدُ المنية على حين غرة كما حدث لأبيهم رحمه الله، أكملته عملاً بالأسباب لا تعلُّقًا بها.

وكنا قد خططنا ذلك البيت معًا أنا وإبراهيم وحشدنا كل أفكارنا ليكون على الطراز الأندلسي بفناء داخلي (وبحرة فوارة بالمياه) ونوافذ كبيرة تستضيف الضوء في كل ردهة من ردهات البيت، حتى أننا جعلنا أحد الجدران المطلة على الفناء الداخلي زجاجيًا وشفافًا بالكامل. ومع

ذلك فلم يحببنه بناتي، لأنه كما كن يقلن (بابا لم يعش فيه معنا) ولا ذكريات خبأناها في زوايا البيت، وأفنيته، وبين جدرانه لنأنس بها.

وفي الرياض حيث كان إبراهيم يأتي بي للاختبارات أثناء دراستي في كلية الشريعة، كانت لنا ذكرياتنا أيضًا، فقد كنا نبحث عن مكان ملائم لنمكث فيه أسبوعي الاختبارات، واكتشفنا ونحن نتجول في الرياض حيّ السليمانية، فذكرنا بأحياء الشام، وأحببناه، وأصبحنا نختار سكننا قريبًا منه. ولَمَّا كنت لا أستطيع الدراسة في الفنادق لمحدودية مساحتها، ولعادتي في المشي أثناء الدراسة، فقد كنا نسكن هذه المدة في شقة مستأجرة، وكنت أدرس طوال الوقت ولا أجلس مع إبراهيم إلا أوقات تناول الوجبات، وكنت إذا قدمت للدراسة تركت بناتي الثلاث اللائي كن كل أسرتنا آنذاك في بيت أهلي لتعتني بهما شقيقتاي المعطاءاتان التوأم هدى ونور اللاتي سماهن جدي لأبي رحمه الله (نور وهداية) محبة للشيخ علي الطنطاوي رحمه الله. وأستأذن القارئ في الاستطراد قليلاً هنا، فقد علم جدي بولادتهما وهو في زيارة استشفائية إلى القاهرة، وطلب من أحد المتاجر هناك تصميم عقدين نقش عليهما اسميهما، وأرسل للشيخ الطنطاوي أنه قد سمى حفيدتيه على اسم برنامجه محبةً فيه، وقرأ الشيخ رسالته في برنامجه وبارك له ولادتهما، على أن أمي طلبته بعد فترة أن يغير اسم هداية لهدى فوافق.

وعودًا لحنين الأماكن وإبراهيم الذي كان محبًا وسخيًا ومدركًا لأبعاد إعانتي على العلم، فلا أذكر ولو مرة وإن في فورات الخصام والمغاضبة أن امتنَّ عليَّ أو ذكرني بمعروفه وصنائعه، على أنه لم يكن يرضى في معاونتي باليسير أو الذي يؤدي الحاجة ويسقط معه العتب، فلم يُسكني

وقت دراستي إلا في أحسن الأماكن، رغم أن معياري الأول والأهم في أي مكان نسكنه كان النظافة الدقيقة لا أكثر، ورغم أنني لم أكن متطلبة، فقد كان يصر على أخذي آخر يوم للتسوق وزيارة صديقتي، صديقة درب العلم والعمر الحبيبة شرف أبو طيرة.

وكنت إذا سألته عن مصاريف الرحلة من تذاكر وإقامة وغيرها، يرفض إخباري، على أنه لم يكن له مصدر دخل آخر غير راتبه. وعندما تخرجت من الشريعة بامتياز مرتفع مع مرتبة الشرف، قال لي: إن أردت إتمام الدراسات العليا سأكون لك ومعك وأعينك، واعلمي أنني لا أفعل هذا فقط لأنك حبيبتي، بل لأنك طالبة علم جادة، وإني لأرجو من الله ثواب إعانتك على طلب العلم.

وعندما أنهيت الماجستير وأردت دراسة الدكتوراه كان البرنامج مغلقًا وبقي مغلقًا لسنتين، ولما فُتح كنت قد فكرت في الموضوع الذي سأختاره لرسالتي وبدأت رحلة تعلم الإنجليزية، ولأنني أكاديمية فيتاح لي الابتعاث لتعلم اللغة لسنة خارج المملكة، حاولت أن أحصل على الفرصة نفسها داخل المملكة للاستفادة من سنة التفرغ عند دراسة اللغة ابتعاثًا، لكن هذا الخيار لم يكن متاحًا في الأنظمة الجامعية، ولم أفكر في إدخال الخيار الأول في حيز التفكير أصلاً رغم موافقة إبراهيم على ابتعاثي، لا لشيء إلا لأنه كان سيبعدني عن أسرتي، ولعدم الارتباط الشرطي بين تعلم اللغة والسفر، فقد تحركتُ في حدود ما تتيحه لي ظروفي وأولوياتي فالتحقت بالمركز البريطاني في حي السفارات في الرياض آنذاك، لكن قاعة الدراسة كانت في الطابق الثاني، وكان المبنى مكونًا من طابقين ليس بينهما مصعد، وكنت حاملاً بطفلي الأخير سعد،

في الشهر السابع، وتقدّمت الأسابيع الدراسية مع تقدمي في الحمل، ولم أعد أطيق صعود الدرج للطابق الثاني فتركت الدراسة في المركز، وقال لي إبراهيم وقتها: سأدرسك، وكان قد درس تخصصه في الهندسة بالإنجليزية، فاخترت مجموعة كتب لتعلم الإنجليزية وطلبتها من موقع أمازون ليدرسني إبراهيم وفق منهج محدد، وبدأنا الدراسة في رمضان، فكنا نخرج إلى المجلس الخارجي الملحق بالفيلا بعد عودته من صلاة التراويح، ويدرسني لساعتين وربما أكثر قليلاً، كان مدرسًا موهوبًا وكنت تلميذة مجتهدة لكنني كنت أحرص على تدوين كل كلمة جديدة تصادفني في تطبيق (Anki) لحفظ ومراجعة الكلمات الجديدة، وكان يضحك لحرصي ويقول: لا تدوني إلا الكلمات المهمة، فذكراة الإنسان محدودة والكلمات المهمة كثيرة، ولا حاجة لك بتذكر اسم (شارِب القِط) لتحفظيه!

وعندما سافرنا في إجازة الصيف إلى القريات كان مستمرًا على تخصيص الساعتين بعد صلاة العشاء لتدريسي، وكان إخوته وأصدقاؤه يتصلون به متسائلين: أينك؟ فيقول مشغول، ولا أحد يعلم أنه مشغول بتدريسي، إلا أخي الذي كان يزورنا باستمرار وفتحت له العاملة الباب في إحدى المرات وإبراهيم يدرسني في المكتبة، فدخل ورآنا وأخذ يضحك لاكتشافه سرّ تأخر إبراهيم عن اجتماع الصحاب ما بعد العشاء. ورغم أنني أكملت تعلمي للغة وحدي بعد أن أنهينا سلسلة الكتب التي بدأنا بها، لكنني ما كنت لأنسى تلك الأيام المليئة بالعطاء والحماس والمشاكسة.

وكنت إذا غضبت منه، وكثيرًا ما أغضب، أرضى سريعًا إذا قال لي

مازحًا: أتغضبين من معلمك؟ كنت أغضب سريعًا ولا ألبث أن أرضى وأنسى ما كان، حتى قالت أمي: ملاك كالبحر تغضب فتنحسر وترضى فتأتيك كلها.

وما زلت إذا مررت بالمجلس الخارجي وجلست في مكاننا الذي ألِفنا، تذكرته وهو يدرّسني، وتذكرت ما قاله لي أخي بعد عودته من الدفن، عن القبر الذي احتضن إبراهيم، إذ كان القبر الذي كانوا قد قربوه إليه لدفنه فيه أول الأمر ضيقًا بعض الشيء، كان رحمه الله سمينًا ولم يكن القبر واسعًا بما يكفي ولا بد من بذل جهد لوضعه فيه. يقول أخي عندما نزلْ من يتلقونه لوضعه فيه وقبل أن ينزلوه إليه، ضاق صدري لضيقه على أبي عمر، فإذا بأحدهم ينادي من موضع بعيد قائلاً: هنا قبر أوسع! فأخذوه إليه، فإذا هو فسيح، فارتحت. فبكيت لكلام أخي ودعوت لأبي عمر بالرحمة، وقلت: كان يوسّع علينا، فوسّع الله له.

تجليات الفقد .. ووسائل التواصل

لا تسلني لا تجرح السرَّ في نفسي
ولا تمحُ كبرياء سكوتي ..
لو تكلمتُ كان في كل لفظٍ قبرُ حلمٍ
وفجْرُ جرحٍ مميت ..

نازك الملائكة

يقال إن الأحزان الكبيرة بكماء!

ويقول الراحل غازي القصيبي:

اترك الجرح لحظة يتكلم ربَّ جرح يطيبُ حين يقولُ

في حين يقول آخر:

خبئ جروحك إن أردت شفاءها إن الجروح إذا بدت لا تطهرُ

وقد يصدق هذا أو ذاك؛ فالناس لا يقفون على مسافة واحدة من البوح، ويختلف موقفهم منه بحسب طبيعة الشخص انبساطيًا كان أو انطوائيًا أو غير ذلك، كما يختلف بحسب الاضطرابات التي يفرضها الفقد على المحزون، فقد تتقلب به الأحوال من صمتٍ مطبق إلى فيضانٍ جارف من الكلمات..

وفي بداية الفاجعة لم أتمكن من الدخول إلى تويتر ونعي زوجي، لكنني نعيته بعد قرابة أسبوع من رحيله، بعد تكاثر الرسائل والاتصالات على بريدي وهاتفي، ما بين عزاء ومواساة، واستعلام للتأكد من حقيقة

الوفاة. عندها كتبت تغريدة عن رحيله، وغبتُ بعدها عن وسائل التواصل لأشهر كنت خلالها أستجيب لمشاعري بالانزواء، وكتبتُ بعد عودتي إليها كلمات عن الاستعلان بالحزن في وسائل التواصل، وكيف تفرض تلك الوسائل على المحزون نمطًا محددًا من أنماط التعبير عن مشاعره.

وكنت ممن اعتادوا صيانة مباهجهم عن الابتذال باستعراض تفاصيلها اليومية للعابرين؛ إذ بدا لي ذلك السلوك أشبه بسلوك من هو غير قانع ولا مكتف بمقاسمة سعادته مع من أحبَّه وحده، وإذا كانت المباهج جديرة بأن تُصان فالأحزان عندي أولى بالسمو بها وصيانتها عن الابتذال بافتراشها يوميًا أمام المارَّة ليرفعوا عن صاحبها تهمة خيانة ذكرى فقيده، أو يشهدوا بوفائه له. وانطلاقًا من هذه القناعة كتبت: يالها من مشاعر رخيصة تلك التي تحددها ثقافة زمن الفرجة، ويا لها من تقييمات تافهة تلك التي يمنحها لنا من أفنوا أعمارهم يتسولون الاعتراف والإعجاب من الآخرين!

هكذا كنت، وهكذا استجبت لقناعاتي السابقة ومشاعري الباعثة على الانزواء وقتها، وما حدث لاحقًا هو أنني انغمست في الحزن غمسًا فكنت أصحو عليه، وأقاسمه فراشي وطعامي وشرابي، وكان يطفو على لفتاتي وسكناتي، كنت أتنفس الحزن بكل ما تعنيه هذه الكلمة، وإذا بي أخضع لإملاءاته، أنا التي طالما تمردت على شخصيتها الساردة وجدتني أنفثه في كتابات وتغريدات وسرديات قصيرة.

واختلف نمط كتابتي المعتاد، ففقدت شيئًا من تحفظي السابق، وارتفعت نبرة السخرية في كتاباتي، ولم أكن أتعامل مع ما أكتبه بنوع من الجدية، بل اعتبرته كخربشات عابرة.. وكان مما كتبته آنذاك مما كان

يستحوذ عليَّ ويصف حالي قولي: إن الفقد يشعرك بأنك كمن بقي له يوم أو يومان ويغادر، فيتبلَّغ بأي شيء ولا يكترث بشيء.

فما الذي اعتراني يا ترى؟ وما الذي تغيَّر بي وغيرني؟

لم أجد إجابة لما حدث لي ومزَّق أسيجتي سوى فكرة الاضطراب نفسها، فالصدمة تُجَمِّد معها كل شيء: التفكير التأملي، والانفعالات بأنواعها، بل حتى القدرة على الكلام، وكنت أرزح تحت وطأتها بادئ الأمر مشدوهة، مأخوذة بما حدث.

وما حدث ويحدث هو أن هذه الصدمة لا تبقى على حالها، وما إن تأخذ في التقشُّع حتى تنفتح لنا أبواب الاحتمالات كلها، فلا شيء مؤكد سوى أننا لم نعد نحن، لم أعد أنا، هذه المشاعر المزلزلة، لا ترسو بصاحبها على أرض صلبة، ويحتاج معها إلى التأكد من موضع قدميه، من بقائه طبيعيًا رغم كل شيء، من قدرته على التفكير والتفاعل والتنقل بين مختلف حالات الأحياء، ويصبح الأمر أشبه باختبار قدرتنا على العيش، ولأن الكتابة هي أداتي التي أختبر من خلالها تلك القدرة، فقد أخذت أتحول إلى شخصية انبساطية، لكن ليس على الحقيقة، ليس تمامًا، فقد كنت أشعر وكأن بيني وبين الآخرين حاجزًا زجاجيًا شفافًا أراهم من خلفه ويرونني لكنني لا أستطيع العبور من خلاله إليهم، وكل تفاعل بيني وبينهم كان صوريًا لا حقيقيًا.

وعندما أعود لكتاباتي في وسائل التواصل تلك الأيام أتذكر أنني لم أكن أتساءل: هل تغيرت قناعاتي تحت ضغط مشاعري؟ لم أفكر بهذا وقتها، وكل ما هنالك هو أن حزني أخذ يتكشف بأشكال مخاتلة، فمرة تحت ذريعة سرد تجربة مضت، ومرة بذريعة الكتابة الحرة، حتى وجدتني

أفقد آخر أحجبتي، وإذا بمشـاعري عارية وشفافة وظاهرة للعيان، وإذا بي أواجه في نفسـي ذلك المظهر الذي طالما مقتّه، مشهد التشرد على أرصفة البوح...!

ولذا قررت وقتها اعتزال التغريد وهجر وسائل التواصل حتى حين؛ إذ لا بوح إلا ويعقبه شـيء من الانكماش والتواري، فالبوح شـكل من أشكال نزع الحُجِب عن الذات، وبغض النظر عن موضوع البوح نفسه؛ إلا بوح مناجاته جلَّ في علاه، يجللنا.. يغشانا.. يستر عُريْنا الروحي.

ذاكرة انتقائية
الجانب المخفي للفقيد

الماضي جميل؛
لأن المرء لا يدرك أبدًا
العاطفة في حينها
إنها تمتد إلى زمن لاحق
ولذا فإننا لا نمتلك في الحاضر
أية عواطف تامة
كل عواطفنا التامة تتعلق بالماضي ..

فرجينيا وولف

(يمحو الموت من ذاكرتنا الصفات السلبية لمن فقدنا؛ فيتعاظم شعورنا بالفقد).

هذا فحوى ما قالته لي صديقة عند رؤيتها لي بعد فقد إبراهيم بعام ونصف تقريبًا. لـم تقله لي حين جاءت لتعزيتي ليلة وفاته، وقالته لي بعد كل هذا الوقت، وكأنها كانت تأمل أن أبدو على خلاف ما بدوت عليـه وقتها. فمـا كان منـي إلا أن دُهشـت لقولهـا ولم أجبهـا وبقيت صامتة.. نعم، لم أنفِ ما قالته، أو أزعم خلافه، ولم أوافقها فيه كذلك، لكنني لم أنسَ مقالتها أو أتجاهلها كأنْ لم أسمعها، بل أفسحتُ مجالاً للتفكير فيها، وتساءلت في نفسـي: أهـذا ما عليه الأمـر حقًا؟! أم هو مجرد فرضية؟!

وكان من عادتي مواجهة نفسي وعدم التردد في الاعتراف بأوهامي

وأخطائي وعيوبي، فقد علمتني التجارب أنّا نؤتى غالبًا من قِبل أنفسنا، لذا لا تهاون مع الاستسلام للأوهام فضلاً عن صناعتها.

وكان حتمًا عليَّ التدقيق في مشاعري وأفكاري للتيقن مما إذا كان محو سلبيات من فقدت فخًا نصبته لي ذاكرة انتقائية، أم لا؟ كما كان علي التيقن بالمثل مما قالته لي صديقة أخرى على سبيل المواساة أيضًا: «نحن نحزن لا للفقد، بل لفوات حظنا ممن فقدنا، فتخيلي فقط لو تزوج زوجك بأخرى، فهذا الخيال وحده كفيل بكشف هذه الحقيقة، ولهان عليك ما تقاسينه الآن»!

ولأنني لا أحسن التخلُّص من شخصية الباحثة؛ فقد تعاملت مع تلك العبارات كفرضيَّات، وقادني تساؤلي حول عبارة الصديقة الأولى إلى اختبار مدى مصداقية هذه العبارة على علاقتي بإبراهيم، وبدأتُ هذا بالتتبع الاستقصائي لخلافاتنا الزوجية، كما حملني خيال المواساة المقترح من صديقتي الثانية إلى التأمل في طبيعة علاقتنا الطويلة أنا وإبراهيم ومدى تأثير الذاتية فيها.

وعدت بذاكرتي لسنوات خلت، لأستحضر ما كان يدور بيننا من عبارات لحظة الخلاف، فالاعترافات والاتهامات السلبية لحظة الانفعال قد تكون كاشفة، وقد لا تعدو كونها مبالغات، نعم قد يكون لها حظُّها من الحقيقة، لكن يحدث بين أطراف الخلاف أحيانًا أن يعمد أحدهم إلى جرح الطرف الآخر إمعانًا في إيلامه تلك اللحظة، ليس إلا...! ومهما يكن من أمر فقد اخترت استعادة ما مضى قدر استطاعتي ورميت ببصري بعيدًا وأنا أتذكر وتساءلت ما نوع الكلمات التي كنت أتفوه بها تلك اللحظة؟

حاولت تذكرًا لكلماتي فلم أذكر إلا ما كان يدور بيننا من خلافات في الموضوعات ذاتها، مع توهمات وطعون تتعلق بالحب، كعادة أي حبيبين ينصبان المشانق لتصفية دعاوى الحب بينهما لحظة الخلاف، وتذكرت قولي له لو كنت تحبني حقًا لما صدر عنك هذا الأمر أو ذاك... وكلمات من هذا القبيل! نعم كنت أغضب وأقسو على نفسي إذا اختلفنا أحيانًا فأبتعد عنه دون أن أغادر البيت، وكنت أمتنع عن الأكل والشرب والنوم طيلة ساعات خصامنا، لكنني لم أدعه يومًا يأتي إلى البيت ليجدني قد أهملت شيئًا من واجباتي بذريعة الخصام، ولم أتوقف عن تلبية أيٍّ من حاجياته لأنني غاضبة منه أو عاتبة عليه، ومع قسوتي على نفسي فلم أكن أسمح لهذه القسوة بالامتداد إليه، ورغم أنني كنت أحرم نفسي النوم إذا تخاصمنا، فلم يحدث أبدًا أن نمت ليلةً خارج غرفتنا، وغاية ما أفعله هو أنني كنت أُعلّق كل شيء لحظة ابتعادي عنه، ومع ذلك فلم يمض علينا عيدٌ أو مناسبة بهيجة ونحن متخاصمين، وكنا نتناقش ونختلف في كل شيء لكننا لم نحطم يومًا الاحترام الذي بيننا، كما لم نسمح لخلافاتنا أن تتعدى جدران بيتنا، وما أسرع ما نتصالح، وكان يضاحكني بعدها ساخرًا من تطرّفِ حزني، فيقول: نمتُ واستيقظتُ وأكلتُ وشربتُ وها قد تصالحنا، فما كان أغناك عن هدر طاقتك وتعذيب نفسك لأيِّ سبب كان، وأنت تعلمين يقينًا أنه سيزول لاحقًا ويبقى حُبُّنا كما كان.

ومع مضي الأعوام خفَّت حدّة ردود فعلي تجاه الخِلاف، ووصل بنا الأمر في السنوات الأخيرة إلى الاستغناء عن الاعتذارات وعبارات التصالح، لقد كان يكفيني ويكفيه أن ينظر أحدنا إلى الآخر مبتسمًا أو يرسل له بعض الإيماءات اللطيفة أو الساخرة ليزول كل ما كان، وكأنه لم يكن!

وكنتُ في حبي له كأمي لأبي رحمهما الله، فقد كانت أمي تختلف مع أبي دون أن تتجاوز حدودَ الاحترام، أو تمتنع يومًا عن أداء مسؤولياتها، أو تحرضنا على عصيانه أو الاعتراض على مواقفه معها، أو تستغل عاطفتنا تجاهها للاصطفاف ضدَّه، بل كانت ترسلنا لتفقده ومؤانسته أحيانًا، وترفض كل محاولة للتدخل بينهما.

وهنا توقفتُ قليلاً وحدثتُ نفسي: أهي حقًا غشاوة الفقد تغطي عينيك يا ملاك فلم تعودي قادرة على إبصار مواطن الضعف في علاقتكما؟ هل كان إبراهيم ملاكًا منزهًا عن العيوب والنقائص؟ أم أنك من السذاجة بمكان لتخفى عليك عيوبه ونقائصه؟ وكيف، وقد عشتِ معه أكثر مما عشتِ في بيت أبويك؟ لقد عرفتِه مدة من الزمن تكفي لتعرية أخلاق وعيوب أي إنسان كان، أفليس عجيبًا إذن أن تخفى نقائصه على عين باحثة مثلك! أهو حبك له الذي يُعمي ويُصم؟ أم هو الإنكار المحض؟ أم ماذا؟

والحق أنني أجهدت ذاكرتي فلم أجد في إبراهيم من عيبٍ أخفيه، أو أتغاضى عنه إكرامًا لذكراه وهو أهل للإكرام، لقد كان نبيلاً بصدق، ودون تزييف أو تجميل. على أنني كنت إذا قرأت لزوجة لا تذكر مواطن الضعف في زوجها عند كتابة سيرته أعجب، وأنتقد تحيزها، فإذا بي أنا نفسي أشبهها.

ويكفي أن أتذكر حلمه وصبره في بداية زواجنا، لأنكمش استحياء من تشكيكي في حقيقة نظرتي إليه، فقد تزوجنا وأنا في سن صغيرة وكنت نزاعةً للحرية، ولأني أول ابنة في الأسرة بعد ثلاثة ذكور فقد كنت أتحسس من محاولات إخوتي الذكور السيطرة عليَّ في ذلك الوقت، وحملتُ

معي تحسسي إلى بيت الزوجية، وكان على إبراهيم أن يواجه إسقاطاتي المستمرة عليه، إذ كنت أفسر كل سلوك يصدر عنه في فترة المِلْكة بأنه نزوع للسيطرة، وأجفل منه، وكان ينفي كل ذلك ليذكرني أنه ليس أحدًا من إخوتي، وأنه لا يحاول ترويضي ولا السيطرة علي، وكل ما أسأتُ فهمه من مواقفه إنما كان تعبيرًا عن حب يحياه معي للمرة الأولى، فتأتي تعبيراته مرتبكة، وملتبسة، وموهمة أحيانًا.

وبعد عودتنا من رحلة ما بعد الزفاف ووصولنا إلى مطار الملكة عالية في عمّان- إذ كنا نحجز لرحلاتنا الدولية عن طريقها لأنها كانت أقرب إلينا من مطاراتنا الدولية- حجز إبراهيم عدة أيام للإقامة في أحد الفنادق الكبرى في العاصمة قبل عودتنا إلى المملكة، وعلمتُ حينها أن هناك حفلاً موسيقيًا سيقام في الفندق نفسه من الإعلانات الموجودة في بهو الفندق، فطلبت من إبراهيم أن نحضره سويًا فرفض، على أنني لم يسبق لي حضور حفلة موسيقية مطلقًا بعكس إبراهيم الذي كان يحضر بعضها أحيانًا، فلَمَّا غضب إبراهيم وأبى أن يحجز لنا تذاكر لحضور الحفل؛ لرفضه فكرة حضورنا لحفل تدار فيه الكؤوس حولنا، غضبتُ لغضبه علي، فما يدريني أن الحفلات كانت بهذه الصورة، ولم أتحدث إليه نهارًا كاملاً، وفي المساء خرج قليلاً ثم عاد إلى الغرفة، قائلاً أنه شعر بتوعك وذهب إلى الطبيب، فحدست أنه إنما كان يتظاهر بالمرض طلبًا لرضاي فقط، وأسفتُ لأنني اضطررته لهذا، واعتذرتُ منه واعترفتُ له وقتها أنني لم أكن أنوي الحضور ولا أحب الاستماع للموسيقى إلا معك وحدك، لكنني تعمدت استفزازك والذهاب بك إلى أبعد مدى ممكن لأختبر مدى حبك لي! فابتسم مندهشًا من تصريحي وقال لي مصححًا: الحب يا ملاكي لا يعني

الانحناء ولا التلذذ بإخضاع الطرف الآخر، وبإمكاني تنفيذ رغباتك دون أن يكون هذا مؤشرًا صادقًا لحبي لك.

هكذا انتهى فحصي للفرضية الأولى فقد تيقنت أنني لم أكن أحتال على فقْد إبراهيم بتناسي سلبياته، وعندها انتقلت إلى فحص الفرضية الثانية، وسألتُ نفسي بصراحة مماثلة: هل كنت ستحزنين لفقده فيما لو رحل بعد زواجه من أخرى بمثل حزنك لفقده الآن؟ أكان حزنك لفوات حظ نفسك منه كما قيل؟ أم أكنت ستتألمين لفقده على أية حال؟

ولأجيب على هذه التساؤلات بصدق لا تشوبه شائبة وهْم، أو ادعاء وتظاهر بالحكمة، اعترفتُ بحزني لفوات حظي منه، نعم، وما العيب في ذلك، إن لم أرِده لنفسي فأيُّ معنى للحب إن خلا من الاختصاص بالمحبوب!

ثم حاولتُ عيش الموقف افتراضيًا بكل ما يكتنفه من حيثيات ومشاعر، أعني زواجه بأخرى، فكذَّبتُني وشكَّكتُ فيما انتهيتُ إليه في كل مرة، ونقضته لأبدأ من جديد في فحصه، وفي كل مرة منها أصل إلى النتيجة نفسها، فلم يكن ليتغير شعوري تجاهه حتى لو ارتبط بأخرى، فإبراهيم هو إبراهيم قبل كل شيء وبعده، ما لم يكن ارتباطه بأخرى على سبيل الخيانة، فالخيانة وحدها ما كانت ستحطم كل تقدير له في نفسي، على أنها تمس صورته قبل أن تمسَّني، وقد احترمته كإنسان وأحببتُ فضائله قبل كل شيء، والخيانة هتك للعهد والميثاق والأمان، ليس الزواج المعلن الصريح، والتسوية بينهما لا تصح، وكما أنه لم يكن ليتلبَّس بالخيانة مطلقًا، فلم يكن في ظني ليفعلها ويتزوج، ومع ذلك فقد تعاملت مع الفرضية الأخيرة على أنها واقع، وانتهيتُ إلى أنني من الناحية الوجدانية

لم أكن لأرحب بأن أتشاركه مع زوجة أخرى؛ فالقلب عندي لا يقبل القسمة على اثنين، وما من حبيب إلا ويستأثر بحبيبه، ولم أكن لأقبل ببعض إنسان، فكيف بمن أحببته!

وغاية ما تصورت فعله فيما لو حدث ذلك، هو أنني كنت سأصدم وربما أنفعل بل أنفجر غضبًا وقد أطلب الانفصال وأهدد بالانسحاب من حياته، دون أن يدفعني هذا بحال لنسيان الفضل بيننا، أو يصل بي الأمر إلى تخطي حبّه بكل سهولة لمجرد أنه تزوج، فقد كنت لأفديه بروحي على أن أراه تعيسًا فكيف يكون لي أن أفضل أن يُغيّبه الموت عني!

وربما يخيَّل إلى القارئ أن في حديثي عن إبراهيم شيءٌ من المبالغة، لكن من عَرَفه لن يخالطه شكٌ فيما ذكرت، بل ربما رآه أقلَّ مما كان عليه في واقع أمره رحمه الله؛ فلم تكن أخلاق إبراهيم وقلبه السخي لي وحدي، ولم يكن يحتفظ بشخصيتين إحداهما لي والأخرى لبقية العالم كما قال طه حسين لزوجته سوزان.

كان إبراهيم رفيع الخلق مع كل من يلقاه وبصرف النظر عن صفته وانتماءاته، كان رحمه الله بسّامًا رحيمًا مترفعًا عن الضغائن، وبلغ من حسن خلقه أن بدّل المواقع عند أمي رحمها الله، فبدلاً من أن توصيه بي كانت توصيني به دائمًا، مرددةً عليَّ أحيانًا قول النبي عليه الصلاة والسلام لخويلة بنت ثعلبة رضي الله عنها: «استوصي بابن عمك خيرًا»[1]، فتقول: «يا ملاك استوصي بابن عمك خيرًا»، فقد أحبَّته كأبنائها وكانت تصفه

(١) الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، لابن بلبان الفارسي، تحقيق وتخريج شعيب الأرناؤوط، (٤٢٧٩).

لي فتقول: «إبراهيم طيّبٌ كاليوم الطيّب، أرأيتِ كيف يمرُّ عليكِ يومٌ طيبٌ لا كدَر فيه ولا صخَب، هكذا هو زوجك». ومرة كانت رحمها الله في زيارة لنا في الرياض ولاحظت توترًا خفيًا بيننا، فلم تسألني عن فحواه ولا سببه، لكنها قالت لي قبل خروجها إلى المطار: «تجاوزي وأحسني لزوجك وتذكري يا ابنتي أن بيتك خرابٌ من دونه»، ورغم محبتي لإبراهيم فقد كنت أضجر في بعض الأحيان من انحيازها الصارخ له وتأييدها الدائم لآرائه عندما نناقش بعض الموضوعات في حضورها، وأقول لها مازحة وأنا أستجديها شيئًا من الانحياز لي: لا أدري هل أنتِ أمي أم أمّه!

كان رصينًا ومتزنًا ونبيلاً ولا ينظر إلينا كندّين، ولا أذكر أنه أشعرني في أيّ حوار أو مناقشة بيننا أنه يفوقني فيها علمًا، أو يستمتع بخطئي ليثبت صوابه إلا على سبيل الملاطفة، ولم يكن بحال يستغل صوابه في أي نقاش لإذلالي، وكما قالت جوان ديديون عن زوجها الراحل: «لم أكن مضطرة لإخفاء موهبتي أو إظهار الدونية المعرفية أمامه، كان يفتنه عقلي كأي خصلة أخرى».

أما تعامله مع أولاده فحسبي قول ابنتنا: «إذا تكلمت بعض الزميلات في المدرسة عن آبائهم وتذكرت كيف كان بابا، حمدتُ الله، كان بابا يدخل من الباب فتدخل الرحمة معه».

كان حبيبًا وقريبًا للجميع، لعائلته، وأصدقائه، لأصهاره وأنسبائه، حتى أجمع أزواج شقيقاتي على محبته، وسمى أحدهم مولوده على اسمه بعد وفاته رحمه الله.

وهكذا كان في عمله، وبين زملائه في الرياض وزملائه القدامى في القريات، الذين لم يكتفوا بتقديم العزاء فيه ولم يتوانوا عن أداء الكثير

من الأعمال الخيرية له وحبس الأوقاف باسم، بعد وفاته في مواقفَ نبيلة ومؤثرة.

وهكذا كان مع سكان الحي الذي نسكنه في الرياض صغيرهم وكبيرهم، وقد حدثني عمي الذي كان في الرياض وجاءني لحظة معرفته بالوفاة، كيف جاء بعض الجيران إلى باب بيتنا عند تسامعهم بخبر وفاة إبراهيم، يدعون له بالرحمة والدموع في أعين بعضهم، والأعجب من هذا بكاء سائقي الحي لفقده، إذ خرج عمي للصلاة ليجدهم مجتمعين مع سائقنا أمام الباب يتحدثون عن إبراهيم والدموع تترقرق من محاجرهم.

وكيف لا، وأنا التي كنت أرى تعامله مع الناس، وكنت إذا رافقته إلى مكان، فتوقف ليشتري غرضًا وأنا أنتظره في السيارة، أراه يخرج من المتجر مبتسمًا فأتذكر قوله عليك الصلاة والسلام: (رحم الله رجلاً سمحًا إذا باع وإذا اشترى[1]) وهكذا إذا كنا معًا وتفاوض مع أحد الباعة حول ثمن شيء معين فينتهي الأمر لصالح إبراهيم، والبائع يناوله الشيء وهو يبتسم.

لقد فاضَ ذِكرهُ بحسن الخُلقِ بين أهله ومعارفه، ولما مات فاحَ عطرهُ ليملأ الأرجاء حتى أنني عجبت أنا نفسي لاستفاضة ذكره بعد موته.

هذا هو إبراهيم.. هذا الذي أكتبُ عنه وأتذكر أنه لم يكن كثيرَ العمل بقدرِ ما كان زكيَّ القَلبِ، والخُلق.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه من حديث جابر بن عبد الله، (٢٠٧٦).

جُـب الاكتـئاب
الاضطرابات الصحية اللاحقة

لفرطِ ما أحاول أن أنسى الوقت
أقعُ في خطأ الانتظار،
وأعلم أن من هو مثلي
لا ينتظر شيئًا
ولا يرغب في شيء،
لأن الأشياء قاطبة
تُقيم في نهارات أحذفها
لكيلا يبقى مني
إلا رميمَ الأرق، شبيهي،
الذي ما عرفتُ سواه.

بسام حجار

في الأسابيع الأولى من الفقد وقبل العودة إلى الرياض أخذَ الوهن يدبُّ في جسمي، وطلب مني قريبي الطبيب الذي كان إبراهيم يوصيه بالتواصل معي سابقًا إجراء بعض الفحوصات، فأجّلتها حتى عدت إلى الرياض وعندها قيل لي أنني أصبتُ بكسلٍ في الغدة الدرقية، وكان عليَّ تناول جرعة يومية من الثيروكسين مدى الحياة، ولأن اضطراب إفراز الهرمونات في الجسم بعد الفقد كان من الأمور التي تحدث لمن تعرضوا للفقد؛ فلم أعجب لحدوثه، لكن آخر ما ظننتني سأصاب به هو الاكتئاب، فمن تخطّت أصعبَ ما في الفقد وتشاغلت عنه بإنجاز مهام الأسرة، وغرقت في كتابة رسالة الدكتوراه، فلا تكاد ترفع رأسها من مهمة حتى تنتقل إلى أخرى، في نضالٍ مستمرٍ وقاسٍ ضد الانفراد بالذات ومواجهة

حقيقة الفقد وجهًا لوجه، لم تكن مرشحة للإصابة بالاكتئاب كما ظننت، لكنها لم تكن بمأمن منه أيضًا.

وكنتُ قد أبقيت كل أشياء إبراهيم في أمكنتها المخصصة لها، ثيابه ومستحضراته وعطوره وكتابه الأخير، رغبةً في عيش وهْم اللاتغير في فضائي الخاص، وكنتُ في تأجيل دائبٍ لإدراك ما يتحتم عليَّ فعله، أي إزالة أشيائه، وما أن حصلت على الدكتوراه حتى وجدتني أواجه ما واصلتُ الفرارَ هاربةً منه عامًا كاملاً.

نعم، لم أكن قد تعافيت من الأرق طيلة ذلك الوقت، لكنني كنت أوظفه وأستثمره في إنجاز أطروحتي، أمّا وقد أنجزتها فلم يبقَ عدايَ وعداهُ وحتميةُ المواجهة.

وكان قد مضى عليَّ أكثر من عام في معاناة الأرق، وأثَّر الإرهاق وحِدَّة الوعي في أعصابي، ودمَّرا قدرتي على الاحتمال، فأصبحت أتوتر وأستاء لأتفه الأمور، وانعكست هذه الحال على بناتي وأبنائي، وبينما كنت أنكر حاجتي لاستشارة طبيب وجدتني أنطفئ، وأنسحب من الحياة رويدًا رويدًا، فأخذتُ أمضي أوقاتًا طويلة في الفراش بجفنين مرهقين لقلة إغماضهما، وجسدٍ مستفَز لكثرة اهتزاز أطرافه، وتفاقم معهما فقدان الرغبة بالمسرات، ومن الانطفاء إلى الآلية؛ إذ أخذت أؤدي أعمالي بطريقة ميكانيكية، وأشارك الأولاد الابتسامات المتكلفة وكأنني أمثِّل دورًا رغمًا عن أنفي، واستمرت أحداث الحياة اليومية تسير على هذا المنوال، وتطور الحال فأخذت أفقد الرغبة بالتحدث إلى شقيقاتي وصديقاتي المقربات، بعد أن تقلَّبَت بي الأحوال من صمتِ الصدمة، إلى ثرثرةِ الفجيعة، فسكون الرماد، وغرقتُ في وحدتي وحزني حتى آخري.

وفي تلك الأعماق السحيقة كنت كغريق يغلبه موجٌ يتراكبُ بعضه فوق بعض فيجهد في التقاط نَفَسٍ يبقيه على قيد الحياة، لعله يصل إلى من يتطلعون إليه على الضفاف، ولو أنني كنت وحدي لما قاومت من أجل البقاء، لكنني أُم وشئت أم أبيت عليّ أن أتشبث ما استطعت بخيط أملٍ يبقيني على صلة حيَّة بهم.

ومع ذلك فلم يعد بمقدوري النهوض بأعباء أمومتي كما في سابقِ عهدي، وغدوتُ كجنازة تتحرك وسَط موكبٍ من أشباح الماضي بخيالاته وذكرياته، وبعد أن كنت أحمل أسرتي باتَ عليهم أن يحملوني على أكتافهم، تمامًا كجنازة، وأخذنَ بناتي الأكبر سنًّا ممن يصغرهن يُرقِّعن ما خرَّقهُ عجزي من مهام لم أستطع تأديتها تلك الفترة الخانقة مع إخوتهم، لكنني لم ألبث حيث أنا، لم يتزحزح شيء، ولم أُفلِت مما أنا فيه، فما زلت عالقة في نفس الحلقة المظلمة كقبر والمفرَغة من الزمن دون شَفقٍ يلوح في الأفق إيذانًا بانجلاء عُتمتها.. أنا التي كنت قبلها بعام واحد فقط أحمل الكَل والكُل على كتفيّ جاهدة في أن أقطع بهم مفازة هذي الحياة بصبرٍ وجسارةٍ من لا يقعده شيء عن المضي قُدمًا.. وقلبي حينذاك..

قلبي كقلبِ رؤومٍ كلما ظمئت
أرْوَت بنيها وفي الرمضاء تصطالُ
في رحلة العمرِ لا ظلٌّ ولا شجرٌ
كذا غريبٌ أنا في الدربِ رحَّالُ[1]

عندها طلبَت منّي بناتي استشارة طبيب؛ إذ لم يعد الأمر يخصُّني وحدي ليخضع لاختياري الشخصي، بل يخصنا جميعًا كأسرة متواشجة،

(١) أبيات من قصيدة للصديقة الشاعرة الدكتوره وضحى القحطاني.

فاستجبتُ على مضض، وشُخِّصت حالتي باكتئاب حاد وخضعت للعلاج لمدة عام، وأخذتُ أتحسن لكنني كنت أراوح ما بين استقرار واضطراب، وكلما أحسست أنني بدأت أتحلل من القيد المحيط بعنقي وجدته يشتد فجأة ويقطع أنفاسي.. نعم، أثَّر العلاج بصورة إيجابية لكن المشكلة لم تكن دوائية ولا هي معرفية سلوكية فحسب، فكل ما يمكن أن يُقال قيل، وكل ما قيل لي عرفته مسبقًا ودون مساعدة طبيب فقد قرأت طويلاً في الدراسات النفسية منذ فقدي رحمة، وفي خلفية المشهد العلاجي كانت قدرتي على نقضِ الدعاوى والتحليلات العلاجية تتعاظم، لقد كنتُ أعذبُ نفسي بنفسي، فأغلق بطريقتي في التفكير والتفسير كل منفذٍ ممكن للخلاص.

وكدت أقلع عن استكمال برنامجي العلاجي الذي بلغ حدَّه الأقصى في الجرعات الدوائية، وحدَّه الأقصى في إيجاد منفذٍ تحاوري مستمرٍ معي، لكنني لم أستجب لهذه الرغبة الملحّة بالإقلاع، قاومتها، ولما شعرت أنني أستمر في التحسن واستقرار وضعي النفسي، بدأت أبحث عن وسائلي الخاصة في الاستشفاء، مع مواصلة برنامجي العلاجي، وخلال تلك المرحلة أعدتُ التعرف على نفسي، بعد معمعة الأحداث المتسارعة التي مرَّت بي بعد وفاة إبراهيم وإنجاز الرسالة، وأخذت أتأمل في تأثير معتقداتي الإيمانية في قناعاتي وسلوكي النفسي من ثم، وتذكرت أنني وصلت مرحلة قاتمة إذ مرَّ علي أحد الرمضانات كنت أصلي فيه وأدعو وأنا قانطة تمامًا من تحسن وضعي، لكنني لم أكن أملك وقتها إلا مواصلة العبادة، لم أملك التوقف عن محاولة استعادة يقيني، والحيلولة دون إزهاق ما تبقى من حسن ظني بربي سبحانه، وكانت مواصلة العبادة هي ما أنقذني لاحقًا.

شفقة .. الإحساس المرير

تمهّل قبل أن تمضي
على أنفاسِ إنسانِ
فإن العمرَ أيامٌ
وعِطرٌ عابر .. فاني

فاروق جويدة

ما أبعدَ أغوار النفس، وما أقسى اكتشاف مدى جهلنا بعمقها، وكنت أخالني أعرف نفسي حقَّ المعرفة، وأعرف مداخلها ومخارجها وكل طرائقها في التملص من مواجهة الحقيقة، كنت أضعها تحت المراقبة المستمرة، ولا أتردد في تقويمها وإعادتها إلى الجادة، إذا ما مالت لهواها على حساب الحقّ أو الحقيقة.

ولما ظننتني عرفتها وألجمتها وسيطرت على نزعاتها تمامًا، اكتشفت أن مقدار ما أعرفه عنها أشبه بمقدار ما يبقى في الكفّ إذا ما حاولت قبضًا على الماء. ومن أشد ما كان يؤذيني في الفقد هو تلك الشفقة المزدوجة، شفقتي على ذاتي، وشفقة يظهرها الآخرون نحوي وأسرتي بعد رحيل إبراهيم.

كنت أشفقُ على ذاتي المبتورة بعد رحيل زوجي وحبيبي وصديقي الذي قطعتُ معه مدارج العمر، صبًا فشبابًا فنضجًا، وأشفقُ على أولادي بعد أبيهم وصديقهم ومعلمهم، وفي الوقت ذاته أرفضُ فكرة الشفقة الساقطة من علٍ، ولم أكن أرفض من حيث المبدأ التعاطف الصادق الذي يفسح مجالاً للشعور المتبادل في بُنْيته اللفظية وحقيقته الواقعية،

لكنني كنت أحلله تحليلاً سلبيًا يفرغه من حقيقته، ويجعل وقوعه على وجهه الصحيح أمرًا مستحيلاً، بل ويجعل من تصديقه صورة من صور خداع الذات.

فقد بدَت لي الشفقة على الذات سلوكًا اعتذاريًا يبرر الضعف والهشاشة التي اعترتني بعدما وقع لي، وكنت أدرك أن ما أحتاجه لمواصلة الحياة ليس هذا الإحساس المرير، بل الامتلاء بالقوة، والتفاؤل، لكنني لا أشعر بهما، وكلما حاولت استشعارهما كنت كمن يحاول قبضًا على الريح.

وواجهت بعض المواقف التي رسخت لدي هذا الشعور، بل فاقمته؛ إذ تعرض طفلي سعد لحادثة تسببت في تهشُّم عظام فخذه، وكانت الكدمات والخدوش بألوانها الفظيعة تعلو بشرة وجهه، وحفظه الله فلم يلْحقه ضررٌ في رأسه، وكان منظره مُريعًا، وعندما تسامعَ الأقارب بما حدث، وصلتني رسالة فيها أبيات شعر بكائية لأحدهم يصف فيها طفلي باليتيم الذي يُرثى لحاله وليس له إلا الله، فلم يخالطني شكٌّ في حسن نية قائل الأبيات، لكنني لم أرَ لليُتْمِ خصوصية في الحادثة، فما حدث لطفلي قد يحدث لأيّ طفل آخر، وما كنت لأمنعه أنا أو والده رحمه الله، قَدَرًا كتبه الله عليه.

ولم أكن لأربي أولادي على تعريف أنفسهم بالأيتام، فيكون يتمُهم ذريعة لتخاذلهم عما يسعهم تحقيقه، أو ليُمسي يُتمهم علَمًا يلوّحون به لاستدرار شفقة الآخرين متى أخفقوا، فاليتيم أحرَى بأن يُجنَّب هذا كله ويُعد للحياة، فتبنى فيه الاستقامة والمثابرة وعدم التعلق بأعذار واهية للتواني والتفريط في أي جانب من جوانب حياته. لقد كان عليَّ عن أحميهم من هذه المواقع التي يحاصرهم فيها الآخرون تحت عنوان الشفقة والتعاطف.

ثم إنني لم أنجُ أنا نفسي من التحول إلى موضوع لاستدرار شفقة الغَيْر، على أنني لستُ محتاجةً لأيٍّ منهم، وأسوأ ما يكون هذا عندما يعاملك الآخرون كمشروع خيري، فقد حدث أن أرسلت لي امرأة على الواتساب رسالة تخطبني فيها لقريبها، وفي أوصافه ما يبرر رغبته في الزواج بي، وهو أنه لا يترك بابًا من أبواب الخيرات إلا ويضرب فيه بِسَهْم! لقد كنتُ بالفعل مشروعًا خيريًا للاحتساب.

وما هكذا تورد الإبل، ولا هكذا يعاملُ كرام الناسِ من ابتلي بالفواجِع.

وهنا أخذت أحيط نفسي بأسوار وحصون، فلا آذن لأحد أو أمكنه من انتهاك كرامتي وكرامة أولادي بشفقته المذِلَّة، ورغم أن وعيي كان يمجُّ الفلسفات العدمية ويشمئز منها، فقد وجدتني أعاني من لوثة عدمية، فالاشمئزاز من الشفقة مطلقًا تركة عدمية، تزدري الضعف والرحمة بالنفس والآخر، ولا تعترف إلا بمبدأ القوة، ولا تحترم إلا الأقوياء وحدهم. وبشيء من التأمل ومراجعة الأفكار وتحليلها وجدتني أعاني من تسلل مثل هذه الأفكار إلى وعيي دون أن أشعر.

وهنا أصبح لزامًا عليَّ تنقية وعيي منها، والتفرقة بين مفاهيم الشفقة، والتعاطف، والتراحم، الإيجابية والسلبية، وفحص العدسة المعرفية التي تنعكس من خلالها صورُ تلك المفاهيم في نفسي، والعودة إلى الينابيع الصافية من جديد، إلى حسن الظن بالله، والاعتصام به، وصدقِ التوكل عليه، فما من قوة إلا وتُستَمدُ منه سبحانه، وما من مخلوقٍ إلا وناصيتهُ بيد القويّ العزيز تبارك وتعالى.

وصحيح أن الانتباه لمثل هذه الأفكار المتسربة إلى وعيي جاء متأخرًا لكن مجيئه كان ضروريًا ومُنتِجًا، إذ عدت إلى نصوص الرحمة القرآنية،

والجسد الواحد في السنة النبوية، ووقفت وقوفًا طويلاً على قوله سبحانه: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ ﴾ [الشعراء:٢١٨]؛ إذ الرحمة تستمد من العزيز الرحيم سبحانه، وانتبهت إلى تكرار اجتماع صفات القوة والعزة في آيات القرآن الكريم، فقد تكررت في سورة الشعراء وحدها ثماني مرات، وتأملتُ اجتماع هذين الاسمين (العزة بمعنى القوة والقهر والمنَعَة، والرحمة)؛ إذ لم يجعل المولى سبحانه من الرحمة نقيضًا للقوة فيما وصف به نفسه، فكيف يسع الإنسان ضرب المفاهيم بعضها ببعض وافتراض تنافرٍ بين القوة والرحمة، وتأملت السياقات التي ورد فيها هذين الاسمين، فلم أزدد إلا يقينًا بأننا لا يمكن أن نستنفدَ معاني القرآن من قراءة واحدة، ولا موقف واحد، بل ولا مائة، ولا أكثر، فما تزال المعاني تتدفق بين يدي القارئ له، وما يزال الإنسان يتقلب بين مواقف الحياة محتاجًا لهدايةٍ، وتسديدٍ، وجَبْرٍ، وإعانة.. وليس ثمةَ وجودٍ لهذا كله إلا في القرآن.

وهكذا أخذت تستوقفني آيات القرآن التي طالما تلوتها ولم تَسْتَبِن لي معانيها كما استبانت في ذلك الوقت، ومن ذلك صيغة المفاعلة في قوله تعالى في سورة العصر: ﴿ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾ ﴾ وقوله سبحانه في سورة البلد: ﴿ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ ﴾، فالمؤمنون يوصي بعضهم بعضًا بالصبر، ويرحم بعضهم بعضًا.

وفي حديثه عليه الصلاة والسلام: (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمَّى)[1]، ما يدفع الانفراد بالألم، أو إسقاط الشفقة من علٍ؛

(١) أخرجه مسلم من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه، (٢٥٨٦).

إذ البلاء قدرٌ جار على البشرية كلها، والتواد والتراحم والتعاطف متبادَل ومتصل، ولا أقول دَيْنٌ مسترد، إذ الشعور يسري في المحزون سريانه في صاحبه؛ وما منَّا إلا وفاقد أو فقيد، وما منَّا بمحصن عن المصائب والابتلاءات في بدنه، وأهله، وماله.

ولا يعني حديثي عن مواقف الشفقة السلبية التي جابهتها، عدم التحقق الواقعي للمعنى الشرعي المقابل للتعاطف والتواصي بالصبر والمرحمة زمَن الفقْد، وإن أنسى فلا أنسى مهاتفة الزميلة الدكتوره لبنى الراشد لي وقتئذ، فلُبْنى عايشت الفقد برحيل والدها الطبيب عبد العزيز الراشد رحمه الله، ومن منطلق المعايشه والتواصي حدثتني لبنى حديث الحامد الشاكر، حديث من يبشر الآخرين بكلاءة الله ورعايته وفضله ورحمته، وأن ما وقع إنما تتجلى فيه رحمةٌ من رحماته سبحانه، وما أزال أتذكر عبارتها حين قالت أن لا والد يعوض عن والدة، ولا العكس، ومع ذلك فالحمد لله أن أبقى الأم يا ملاك ! وأخذت تضيء لي هذا المعنى بكل ما استطاعت من قوة، لم ينقصها فيها الاستدلال والبرهنَة، ولَفْت انتباهي لمواضع الرحمة والحكمة في القضاء المحتوم، ولم يغِب عنها صدق الشعور وسموّه.

وما أود قوله بصورة أوسَع وأبعَد.. إن الابتلاء عمومًا والفقد بخاصة لا يخلو من ابتلاءاته الخاصة منذ وقوعه أو لحظة تلقي الخبر بوقوعه، نعم، قد يأتي الابتلاء وقد طوى داخله ابتلاءات أخرى، ولا يُشترط أن يكون له نقطة بداية ونقطة نهاية تتلاشى عندها أحزانُ صاحبه، فقد يستصحِب الإنسان معاناته طيلة بقائه على قيد الحياة، لكن ألطاف الله لا تنفك عن قدره.

وبعبارة أخرى ليس للفقد بالضرورة مرحلة ختامية تنتهي بسلام مطلق مع النفس والناس، ولأن ما من قَدَر يخلو من الحكمة مطلقًا، فيظلُّ الفقدُ دافعًا لفهم النفس في أطوارها المختلفة، ودافعًا للتأمل في مدى فاعلية المعاني الدينية في حياتنا، وقد أجرى الفقدُ جردًا شاملاً ودقيقًا لمعرفتي الدينية السابقة، وحمَلَني على مراجعة كل تلك المعاني والغوص فيها من جديد؛ إذ المعرفة، أعني مجرد معرفة تلك المعاني شيء، وتأملها والتعمق فيها واستشعارها شيءٌ آخر.

وهم الحياة الجديدة

ختمتُ على ودادكَ في ضميري
وليسَ يزالُ مختومًا هناكَ

بهاء الدين زهير

ما زلت أذكر مواساة إحدى قريباتي الحبيبات زمن العزاء، وهي تربتُ على كتفي قائلة: لا تنظري إلى رحيل إبراهيم على أنه نهاية الحياة، بل انظري له على أنه بداية لحياة جديدة!

كان وقع هذه الكلمة على سمعي في ذلك الوقت مُربِكًا؛ فكلمة (جديد) وبعيدًا عن معانيها القاموسية، لا ترتسمُ في ذهني ونفسي إلا بصورة بهيجة تذكرني أوّل ما تذكرني (بالعِيد). والجديدُ عندي هو ما يملك ميزةً على سابقه، والجديدُ يشيرُ إلى الجميل المرتقَب، والجديدُ يُستجلَبُ لضعفِ كفاءة القديم أو استهلاكه، ويُفضي الجديدُ إلى التخلي عن القديم أو إهماله، وهذه المعاني لا تنطبق على الفقد الذي عَنَى لي معنى واحدًا لا غير؛ إذ الفقد عندي هو (النهاية) نهايةُ حياةٍ، وعلاقةٍ، وحضور. وكما قالت الكاتبة جوان ديديون: «هذه ليست قصةً يقودُ تسلسلُ الأحداث فيها إلى حياةٍ جديدة»[1].

إن الزهرة التي تنبتُ وسط الخرابِ، تنبتُ بالأمل، لكنها لا تُغيّر من واقع ذلك الخراب شيئًا.. واستئناف الحياة وسط الموت كذلك، إنما

(١) عام التفكير السحري، ص١٨١.

هو إضافةٌ موازية لحقيقةٍ قائمة لا إلغاءَ لها؛ ولذا لا يسعنا دائمًا محوَ ما كان وإعادة التشكيل من جديد.

وكنتُ إذا ما نوقشتُ في هذه الفكرة، تُذكرُ لي قصة الصحابية الجليلة أم سلمة رضي الله عنها بعد وفاة أبي سلمة رضي الله عنه[1]، وكأنَّ من يورد القصة يتغافل عن أن أبا سلمة لم يَعْقُبه في أهله إلا نبي! وهذه سابقةُ الدهر وخاتمته.

بل إنني كلما تذكرت أم سلمة وهي تدعو (اللهم أجرني في مصيبتي وأَخْلِف لي خيرًا منها) مستبعدةً من ذهنها تمامًا آنذاك أن يخلفها الله نبيًا كريمًا صلوات ربي وسلامه عليه، ومتسائلة: (ومَنْ خيرٌ من أبي سلمة!) كلما ترددَ صدى هذا المعنى في أعماقي فأرددُ بدوري: (ومن خيرٌ من إبراهيم!).

ولست أدعو بقولي هذا إلى التبتل، أو أُكَذِّبُ بخلف الله لعباده، أو أطعنُ في وفاء من استأنفن حياتهن مع أزواج آخرين بعد الفقد، وما أود قوله هو أن خُلفه سبحانه لا ينحصر في إخلاف زوج بزوج، فلفظ الدعاء عام وليس خاصًا بمن فقدت زوجًا، ومن الناس من لا يخلفه أحدٌ من الخلق، كالأب والأم، وفضل الله واسع، وحكمته بالغة، وقدرته شاملة لألوان من الخلف كما قال سبحانه في سورة آل عمران: ﴿ وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ [٧٤].

والناس ليسوا سواء في تجاربهم مع الفقد، وإن صحَّ الوصف كما قلتُ من قبل، فهناك تواريخ من الفقد، لا يقارَن بعضها ببعض، ولا ينطبق بعضها على بعض، فأن نستأنف الحياة في مقتبل العمر، أمر

---

(١) راجع النص الكامل الذي أخرجه مسلم من حديث أم سلمة، (٩١٨).

يختلف عن استئناف الحياة متأخرين، وخوض تجربة جديدة نجرُّ معنا إليها كل ما تشربناه في حياة سابقة تشكلت قبل هذه التجربة وبمعزل عن ظروفها الخاصة.

وما الداعي لاستجلابها؟ وليست تغني عمن فقدنا شيئًا، إذ الفقد بترٌ كما قلت، وما كان لاستبدال عضو بُتر من أجسادنا بقطعة بديلة أن يبعث أحاسيس الحياة فيما بُتر منَّا، نعم، قد يؤدي البديل دورًا وظيفيًا قريبًا من الأصل، لكنه لن يحلَّ محله بكل المعاني الممكنة.

ولذا فإني لا أفهم الخُلف بصورة واحدة وتحقُّقٍ واقعيٍّ واحد، بل أفهمه في ضوء القدرة والحكمة الإلهية الشاملة الواسعة، ولأنني أدرك أن هذه الحياة جُبِلت على كدر، فلست أتطلَّبُ منها غير ما جُبِلت عليه، ووطَّنتُ نفسي على أن الفقد مرحلة مفصلية في حياة الإنسان، ومثله مثل أمور أخرى تجري على سنَّة الابتلاء في هذه الدنيا، نعيش معها دون تطلعٍ لعودة عقارب الساعة إلى الوراء، فما وقع، وقع وانقضى، وما بقيَ هو التعايش معه بروح المؤمن بأن ما عند الله خير وأبقى.

وما بين الاعتراف بلحظات العجز، وتخطي مرحلة الصدمة والإشفاق على الذات والتأقلم مع التغيرات الناجمة عن الفقد، مسافة لا تقاس بالزمن، ولا ينبغي استعجال التعافي منها، مع بذلِ الأسباب المعينة عليه، فتَعَجُل الشفاء من الأوجاع يَسقطُ بصاحبه منهكًا، مرتميًا على ما جفَّ من صبره في نهاية المطاف.

وصحيحٌ أننا كلما تذكرنا الغائبين تجرَّعنا غصصَ فراقهم، لكننا نحمد الله أن أخذنا نصيبنا الوافر من الحياة بقربهم، ونهلنا أعذب لحظاتنا معهم، لنبقى رغم الفقد في غُنية عما يَسِدُّ مسدَّهم من بدائل لا

تُضاهي ما فقدنا، أو سعادة متوهمة، أو قصة حب أخرى، فالحب كما قال نزار: (مثل الموتِ والولادة لا يُعاش مرتين).

وكما قالت لميعة عباس عن وَهْم الارتماء على العزاءات البديلة:

نتقرَّى الشبيه بالحسنِ كيْ   تنعم العينُ بالقريب المباح

ثم عادت لتعترف بعجز أي بديل عن أن يَسُدُّ مَسَدَّ الأصل عندها، فأتبعت بيتها الأول بقولها:

ليس تُغني عن وجْهِ أمي وإن شاخ   كل هذي الوجوه الملاح

وأعود إلى التأكيد أن لتجربتي خصوصيتها كما لكل تجربة أخرى، لذا فهي لا تنطبق بالضرورة على سواي، فالفقد في خريف العمر يختلف عن الفقد في ربيعه أو صيفه.

ملاذات الفقد

مرافئ الذاكرة
الوَجْد والفقد في كتابات الزوجات

للشبابيكِ سماء
للعصافيرِ فضاء
للخُطى دربٌ وللنهرِ مصبّ
وأنا .. للذكريات

محمود درويش

لجبران خليل جبران كلمات في أُنْسِ المحزونِ بالمحزون، يقول فيها: «إن النفس الحزينة المتألمة تجدُ راحةً بانضمامها إلى نفسٍ أخرى تماثلها بالشعور وتشاركها بالإحساس مثلما يستأنسُ الغريبُ بالغريبِ في أرضٍ بعيدة عن وطنهما؛ فالقلوب التي تُدْنِيها أوجاع الكآبة بعضها من بعض لا تفرّقها بهجةُ الأفراح وبهرجتها. فرابطة الحزنِ أقوى في النفوس من رابطة الغبطة والسرور»[١].

ولأنني قارئة فلطالما وجهتني بوصلتي الفكرية إلى المكتبة، فاعتدت البحث عما يشاغلني من تساؤلات بين دفتي الكتب، وعشت بينها زمنًا طويلاً، فكانت أنيسي ومعلمي وطبيبي وملاذي، والمساحة التي أتحرك فيها بحرية مطلقة، بلا أقنعة ولا حواجز ولا إشارات توقف.

علمتني القراءة الإصغاء طويلاً لما يقوله الكِتَاب، ومنحتني ما لم يمنحه لي كثيرون، فلم تحفّني بالجمال وتعلمني تذوقه وتقديره فحسب،

(١) الأجنحة المتكسرة، ترجمة: د. جميل بدر، ص٦٢-٦٣.

بل دربتني على اليقظة الذهنية، وتقدير التفاصيل دون إهمال الصورة الكلية، علمتني الانتباه لحِيَل الكتّاب ومغالطاتهم، وإزالة كل زَيْفٍ يحولُ دون إدراك الحقائق، وكم أكرمت القراءة تساؤلاتي وشجعتني على الإفصاح والاعتراض والتحاور.

وعندما أخفقتُ في فِهْمِ ما أمرُّ به فترة الفقد قصدتها، وإلى مرافئ الكتب كانت وجهتي، فأخذتُ أفتشُ في كتابات الزوجات عن أزواجهن، وعن تجاربهن في الفقد، عن شبيهاتي في الحزن، لعلَّ يدًا «تمتدُ نحوي كيدٍ من خلال الموج مدَّت لغريق»[1].

ولم أقصد البحث الاستقصائي بل الاطلاع على ما يسعني قراءته مما نشر في المكتبات. واهتممت بالكتابات المنشورة في منطقتنا العربية لتشابه الثقافة والتجارب، وكنت على قناعة بأن التجارب الإنسانية تتقاطع وتتشابه في بعض الجوانب وإن اختلفَت الثقافات، فليس الفقد محض تجربة ذاتية بل تجربة كونية في الوقت ذاته؛ فما من فقد إلا ويحدده ويرسم تجلياته سؤال المعنى، وما من فقد إلا ويعمل الزمنُ والذكريات فيه عملهما.

وفي معظم كتابات الزوجات المنتمية إلى محيطنا الثقافي لاحظت حضورَ الوجدان أكثر من الفقد، ولفَتَني فيها صخبُ الحياة أكثر من أصداء الموت، فهل كان استحضار قصص الحياة هو الوسيلة الشائعة للتعزي عن الفقد؟ أو هل بدا لي أن كتابة الزوجات عن الأزواج الراحلين كانت تمثل لهنّ مهمة سامية، يسجلن فيها شهادتهن على الفترة التي رافقن فيها أزواجهن، ويطلعن القراء على تفاصيل لم يسبق لها الخروج

---

(١) من قصيدة الأطلال، لإبراهيم ناجي.

للحياة العامة، ويُعلنَّ فيها الوفاء لذكراهم، ويدفعن بها لاستمرار حضور الراحلين في دنيا الناس لا في دنياهن فحسب؟!

لا يخفى أن معظم تلك الكتابات تندرج في نوع كتابيّ يعرَف بأدب السيرة الذاتية، الأمر الذي يُفسِّرُ ملاحظتي الأولى حولها، ومع ذلك فقد بدا لي وكأن الكاتبات يحيين تقليدًا ثقافيًا جاهليًا حين كان العرب أيام الحج يتحدثون بمفاخر الآباء ومآثرهم.

هذا ما لاحظته في الكتابات المنتمية إلى محيطنا الثقافي إجمالاً، بعكس ما لاحظته في الكتابات الصادرة عن الغرب؛ إذ كانت أكثر غوصًا في التجربة، وأكثر إفصاحًا عما يجول داخل الكاتبة من أفكار وهواجس ومخاوف. وأقول هذا من منطلق التحليل لا منطلق المفاضلة الثقافية.

وبدا لي بعد التأمل تأثُّر كلا الفريقين بالثقافة التي احتضنت تجاربه، فكما ظهر في كتابات العربيات نزوعٌ نحو حكاية المآثر والمراثي، فقد تأثرت كتابات الغربيات بثقافة الاعتراف المنبثقة عن طقس الاعتراف المسيحي، إذ يكسر الاعتراف حاجز التكتم ويصبح صاحبه أكثر قدرة على البوح بأشد الأمور حساسية دون أن يجد حرجًا في هذا، وقد أثّر هذا الطقس في الفنون والآداب كما في كتابات الأديب النمساوي ستيفان زفايغ؛ إذ يمثل الاعتراف أحد ثيماته الأساسية.

ولعل أكثر كاتبة تناولت فَقْد الزوج وتمكنت من استشفاف أبعاده برأيي هي الفرنسية جوان ديديون، وسأفردُ الحديث عن قراءتي لكتابها في الصفحات القادمة، قبل أن أتحدث عن كتابات أخريات عن أزواجهن.

على أنني لا أوغل في تأمل التجربة الإنسانية إلا وألمس التناصّ العميق فيها، وكأن حيواتنا نصوص تتداخل وتتعالق ويستدعي بعضها بعضًا!

وهذا ما سيلاحظه القارئ، فتجاربنا في الفقد ترجع إلى قصة واحدة هي الحُب، والحب واقعة متكررة في التاريخ الإنساني وإن كان لكل منها طابعها الذي يميزها عن غيرها.

ولا بد من القول أخيرًا إن قراءتي لتلك التجارب قراءة تفاعلية، تُحاور، وتستشكِل، وتربط، وتقارن، وتستدرك، دون التزام بمساحة محددة، ولا طريقة واحدة في التناول، وإنما هي قراءة الباحثة عن خيط ضوء يمكّنها من إبصار طريقها الذي انعطف بها فجأة إلى مكان لم تعهده من قبل، ولم تتوقع السير فيه.

بين كونية الفقد وخصوصيته

جوان وجون ديديون

تنبأتُ بانهيار جرفٍ
في كاليفورنيا فانهار،
لكنني ما تنبأت يومًا
بقلبٍ يتوقف
على مائدة العشاء،
ليُعلن الختام.

جوان ديديون

سبق وأن قلت إن الفقد تجربة كونية رغم خصوصيتها الظرفية، ويتبدَّى هذا في كتاب جوان ديديون (عام التفكير السحري[1]) أكثرَ من غيره.

فقدت جوان زوجها جون بعد أربعة وأربعين عامًا من الزواج، ورغم خصوصية تجربتها فقد استطاعت أن تجسد في سرديتها الخاصة حول الفقد أبعاده الكونية المشتركة بين الفاقدين، لا تجسيد تجربتها الشخصية وحدها. ولا أرمي بقولي هذا إلى تعميم هذه الأبعاد على كل من فقدَ عزيزًا، فهي لا تصدق إلا على أولئك الذين جمعتهم علاقة قوية وطويلة وحميمة مع الفقيد، علاقة تَحدَّت الوقت وقاومت ما يُحدِثه في العلاقات من تَصدُّع وجفاف وتَفَتُّت، علاقة اتسمت بتعدد القواسم الجامعة بين الشريكين، وتنوعت فيها تجليات الحب، والصداقة، والاهتمام المشترك، علاقة لا تنتهي حيويتها بإشباع الاحتياجات الغريزية، ولا تنقطع أواصرها

(١) مذكرات من ترجمة: شادي خرماشو.

بنفاد الصبر على الصحبة الطويلة، علاقة تتجدد من داخلها لا بمظهرها وشكلها الخارجي فقط. علاقة يغذيها الزمن ويضفي عليها أهمية خاصة ولا يُسوّغ الهروب منها لعلاقات بديلة يلاحق فيها أحد الطرفين إكسير الشباب في آخرين؛ أقول هذا لأن للفقد لغة مشتركة لا يفهمها إلا من عاشها.

وبهذه الأبعاد الكونية للفقد سأستهل الحديث عن كتاب عام التفكير السحري، إذ تجربة الفقد التي عاشتها جوان لم تنتهي بها للتمحور حول ذاتها الموتورة، فلا تبصر إلا وجعها، بل أمسَت تستشف ما تحدّثها به ملامح الفاقدين، حتى لم يعد يخفى عليها الوشم (النظرة) التي يخلفها الفقد على وجوه المفجوعين به، فتقول: «الأشخاص الذين فقدوا عزيزًا تميزهم نظرة معينة تُرى على وجوههم خلال الفترة القصيرة التي تعقب الفجيعة... نظرة قد لا يدركها سوى أولئك الذين ارتدوا هذه النظرة ورأوها على وجوههم. كنت قد لاحظت تلك النظرة على وجهي، كما لاحظتها على وجوه الآخرين. نظرة مليئة بالضعف، بالعري، بالضياع. نظرة شخص خرج للتو من عيادة طبيب العيون فصعقه ضوء النهار بوهجٍ جعل حدقتيه تتسعان، أو نظرة شخص يرتدي نظارات وأجبر على خلعها حين غرة. هؤلاء الذين فقدوا عزيزًا يبدون عراة لأنهم يعتقدون أنهم غير مرئيين. أنا نفسي شعرت أنني غير مرئية، على الصعيد المعنوي لا الجسدي، لفترة من الزمن. بدوت كأنني قد عبرت أحد تلك الأنهار الأسطورية التي تفصل عالم الأحياء عن عالم الأموات، ودخلت مكانًا لا يمكن أن يراني فيه إلا أولئك الذين فقدوا عزيزا منذ وقت ليس ببعيد»[1].

---

(١) عام التفكير السحري، ص٢٠.

وما كانت تراه من آثار الفقد على الوجوه ظل يشغل ذهنها حتى قالت: «أفكر في معارفي ممن فقدوا زوجة أو زوجًا أو ابنًا. أفكر تحديدًا كيف بدا هؤلاء عندما التقيت بهم بالصدفة، في الشارع، أو وهم يدخلون إحدى القاعات مثلاً بعد عام أو نحوه من الفجيعة. ما صدمني في كل مرة صادفت بها أحدهم هو كم بدا مكشوفًا وعاريًا ومنتهكًا، كم بدا مسحوقًا، كم بدا ضعيفًا. كم بدا كل هؤلاء فاقدين للاتزان. الآن بتُّ أفهم»[1].

وتضيء جوان بتجربتها بُعدًا آخر من أبعاد الفقد الكونية، وهو ألم الانفصال عن الفقيد بعد علاقة التصاق طويلة، وما يعقب هذا الانفصال من معاناة الوحدة بعد غياب الصاحب. ولم تكن جوان وزوجها جون محاطين بالعديد من الأبناء والبنات، بل كانت لديهما ابنة واحدة متبناة، وكانت طريحة الفراش في المستشفى عند وفاة والدها. ومع ذلك فمهما كثُر المحيطين بالمكلوم يظل مكان الفقيد شاغرًا في العقل والقلب والزمان والمكان. حقيقة صاغتها جوان بقولها: «وحدَةُ من يُفجَع بموت عزيز يُتركُ وحيدًا بكل ما للكلمة من معنى وقسوة»[2].

كان جون وجوان يقضيان معظم الوقت معًا، وكما قالت: «لم نبتعد عن بعضنا إلا فيما ندر»[3]، «وكنا متكافئين في عدم تخيُّل الحياة دون الآخر»[4]، حتى كأن الزمن نفسه توقف عند اللحظة التي التقيا فيها، وهنا تذكر جوان كيف بدأت تشعر بمضي العمر بعد موت جون، بعدما كانت

---

(١) عام التفكير السحري، ص١٥٦.

(٢) نفسه، ص١٧٨.

(٣) نفسه، ص١٥١.

(٤) نفسه، ص١٨٠.

ترى نفسها دائمًا في سن التاسعة والعشرين، السن التي كانت عليها عندما التقته، وعقّبت: «الزواج ذاكرة، الزواج زمن، وهو للمفارقة نكرانٌ للزمن»[1].

وإذا بالحياة التي كانت قسمةً في كل شيء، أصبحت باعثًا للألم، وإذا بالحاجة الكامنة فيها للتفاكر والتشاعر لا تموتُ بموت الطرف الآخر بل تبقى بعده لتُلهب مشاعر الفقد كلما تجددت، وقد ذكرت جوان أنه ما كان بوسعها أن تحصي الأفكار التي كانت تخطر ببالها خلال اليوم، فتشعر بحاجة دائمة إلى مشاركتها مع جون، لتدرك عند ذاك أن هذه الحاجة لم تمت بموته، وما مات بالفعل هو إمكانية تلقي ردٍّ منه!

وكانت هذه الحاجة مستفَزة باستمرار، فإن مرَّت بأحد الشوارع أو الأماكن التي كانا يرتادانها سويًا ولاحظت تغيرًا، كانت تتساءل حول ما إذا كان هذا التغير سيثير اهتمام جون لو كان موجودًا؟!

وحين استأنفت الكتابة بعد موته، كانت المقالة التي كتبتها أوَّل نص تكتبه ولا يقرأ جون مسودته، حتى أنها فقدت القدرة على إتمامها، ولم تستعِد تلك القدرة إلا بعد أن هيَّأت لنفسها أنها تلقت رسالة من جون يقول لها فيها: «أنت كاتبة محتوى، أنجزي المقالة»[2].

وما يثيره ألم الاعتياد في الزواج أنه يصبح بعد الفقد أشبه بالترقب الذي ينتهي بخيبة أمل، وهو أحد الأبعاد المشتركة بين من فقدوا أزواجهم، كما كان يحدث مع جوان عندما تأتي حاملةً معها أخبارًا كانت ستثير اهتمام جون، فتدخل المنزل وتضع المفاتيح على الطاولة قبل أن تتذكر

---

(١) عام التفيكر السحري، ص١٨١.

(٢) نفسه، ص١٩٦.

أنه ما من أحد هناك لتقص عليه ما حملته من أخبار! وهنا تستدعي جوان اقتباسًا يفسر هذا الإحساس كتبه كلايف ستيبل بعد موت زوجته، يقول فيه: «مردُّ هذا إلى الإحباط المتأتي من الدوافع والحاجات الكثيرة التي قد أصبحت أمرًا اعتياديًا. فكرة تلو أخرى، وشعور بعد آخر، وفعل يتلوه آخر، يصبح هذا جزءًا من حياتهم. هدفهم قد اختفى الآن. أظلُّ بحكم العادة أضع السهم على الوتر وأموضعه جيدًا وأسدد، وقبل أن أقذفه أتذكر، وأضع القوس جانبًا. كل الطرق كانت تقود إليها (يعني زوجته الفقيدة) أما الآن فثمة حدّ أخير لا يمكن تجاوزه، الكثير من الطرق المفتوحة فيما مضى أصبحت الآن طرقًا مسدودة»[1].

ويثير هذا الاعتياد والالتصاق بالطرف الآخر ردود فعل متناقضة تجاه الأمكنة التي جمعت الطرفين أو عبراها سويًا، فتارة يكون رد الفعل تجاهها الاستحضار والتساؤل، وتارة يكون التحاشي والابتعاد، وتارة يكون الأنس والبقاء، فرغم أن جون توفي في منزل الزوجية فلم يدفع هذا الأمر جوان لهجر المنزل، بل انتهى بها إلى الاحتماء بين جدرانه، وقد ذكرت أنها فقدت الرغبة في الخروج من المنزل ومواجهة الحياة خارجه.

وحينما يفتحُ الغياب أبوابه على مصراعيها، تجتاحُ المكلومَ أشكال القلق والمخاوف، ويمتد تأثير الفقد إلى جوانب أخرى لتصبح الهشاشة هي الجواب العملي لحال المكلومين بالفقد، وتتخذ ردودُ فعلهم نحو الأمكنة اتجاهًا آخر، فيميلون إلى تجنب الأمكنة التي تذكرهم بلحظة الفقد، فقد ذكرت جوان كيف كانت تتفادى تناول الطعام في الغرفة التي

(١) عام التفكير السحري، ص١٧٩.

سقط فيها زوجها السقطة الأخيرة، فكتبت: «في شهر يونيو عندما أصبحت فترات الغسق تمتد لوقت أطول أجبرت نفسي على تناول العشاء في غرفة الجلوس حيث يتوفر ما يكفي من النور. كنت قد بدأت الطعام في المطبخ بعد وفاة جون، غرفة الطعام كانت كبيرة جدًا وطاولة الطعام في غرفة الجلوس كانت موضوعة في البقعة التي سقط فيها سقطته الأخيرة، لكن عندما أصبحت فترات الغسق طويلة انتابني شعور قوي بأنه يريدني أن أرى النور، وعندما أصبحت فترات الغسق أقصر انسحبت مرة أخرى إلى المطبخ»[1].

وبمقابل الابتعاد عما يذكرنا بالفقيد، تطفو ظاهرة أخرى معاكسة وهي استبقاء أشياءه حولنا والتشبث بها، ويذكرني هذا بما ذكره باسكال مرسييه في روايته (قطار الليل إلى لشبونة) عند حديثه عن الشخصية الرئيسة لروايته، أماديو، وكيف أوقفت أخته عقارب الساعة الحائطية عند اللحظة التي فارق فيها الحياة!

هكذا فعلت جوان مع أشياء جون: «ساعة المنبه تلك التي كانت قد توقفت عن العمل في العام الذي شهد وفاته، ولم يكن من الممكن إصلاحها، وبعد أن فارق الحياة لم يكن من الممكن رميها. لم يكن من الممكن حتى تغيير مكانها على الطاولة قرب سريري»[2].

وعن الضعف والهشاشة وفقدان الاتزان بعد الفاجعة، تحدثت جوان عن ذلك الخوف الذي ملأ كيانها، وكيف أصبحت الأحداث الصغيرة والعابرة تخيفها، كما في ذلك اليوم الذي عَلِقَ فيه طرفُ صندلها بين حجارة الرصيف، وكادت أن تسقط، ثم أخذت تتساءل بعد أن نجحت

---

(١) عام التفكير السحري، ص١٥٠.

(٢) نفسه، ص١٥٢.

في تفادي السقوط: «ماذا لو أنني لم أنجح في تجنب السقوط؟ ماذا لو سقطت؟ أي عظمة كانت ستنكسر؟ من سيتمكن من رؤية الدماء تسيل على ساقي؟ من سيوقف لي سيارة أجرة؟ من سيذهب معي إلى قسم الطوارئ؟ من سيعود معي إلى المنزل؟ توقفتُ عن ارتداء الصنادل. اشتريتُ زوجين من أحذية بوما الرياضية وبتُّ لا أنتعل سواهما[1]».

ولأنها كانت تقيم وحدها في المنزل فقد تضاعف خوفها، وبدأت تترك المصباح مشتعلاً طيلة الليل، والسبب كما قالت: «في تلك الليالي التي كان المنزل فيها مظلمًا لم يكن بإمكاني أن أغادر السرير لأدوّن فكرة أو عبارة، أو لأبحث عن كتاب أو لأتحقق من أنني قد أطفأت فرن الطبخ. في تلك الليالي التي كان المنزل فيها مظلمًا كنت أستلقي في سريري بلا حراك تتنابني رؤى مرعبة عن المخاطر الكامنة في المنزل...الكتب التي قد تنزلق من الرف لتقع على رأسي وتفقدني الوعي، الحصيرة التي قد تنزلق من تحت قدمي في الممر، خرطوم الغسالة الذي قد يفلت من عقاله ليجعل المياه تغمر المطبخ من دون أن أتمكن من رؤية ذلك في الظلام...أدركت أن تلك الأفكار كانت أكثر من توجس مفرط وحذر شديد»[2].

وكان هذا الضعف الذي اعتراها يسارع للظهور بمجرد أن يحركه أدنى شيء ولو كان سؤالاً عابرًا، كما حدث عندما ذهبت لرؤية طبيب من أصدقائهما، لإجراء فحص روتيني، فسألها كيف حالها فانفجرت بالبكاء! رغم أن السؤال يفترض ألا يثير لديها أيَّ اضطراب. ولأنها تدرك أن أكثر ما يضر بالإنسان ركونه إلى ضعفه وهشاشته وجعلهما تبريرًا

---

(١) عام التفكير السحري، ص١٥٤.

(٢) نفسه، ص١٥٤.

لتردِّيه الاختياري في دركات اليأس فقد استنكرت تلك الشفقة على الذات التي لمستها من نفسها، كما في قولها: «بسرعة تتغير الحياة، في لحظة تتبدل الحياة، تراك جالسًا تتناول العشاء وإذا بالحياة التي تعرفها تنتهي. أيُّ شفقة على الذات تلك»[1].

تلك الشفقة هي ما حاولت جوان تجاوزه، بتذكر العطايا التي كانت تتمتع بها طيلة حياتها، فقالت: «ما لبثت أقول لنفسي إنني كنت محظوظة طوال عمري، وأن ذلك لا يعطيني الحق بأن أفكر في نفسي كشخص تعيس الحظ. هذا ما وصلت إليه لاقتناعي بالقدرة على تجاوز مسألة الإشفاق على الذات، حتى أنني صدقت الأمر. لكنني بعد ذلك بدأت أتساءل: ما علاقة ذلك بالحظ؟ عندما تأملت الأمر لم أجد أية مناسبات لعِبَ فيها (حسنُ الحظ) دورًا في حياتي»[2].

ولأنها تستحضر في كتابتها سببيه عقلانية، فقد أخذت تبحث عن المصدر الذي يتسبب بالشفقة على الذات، وانتهت إلى أن غياب الطرف الآخر (الفقيد) يجعل التركيز على النفس مصدرًا طبيعيًا للشفقة على الذات.

ولأنها عانت من صعوبات إجراء حوارات اجتماعية طيلة العام الأول لوفاته، فقد أخذت تبحث عن تفسيرات منطقية لما يحدث معها لتدفع ذلك الشعور البائس بالشفقة على الذات فتقول: «في مناسبات كهذه أسمع نفسي وأنا أبذل جهدًا وأفشل. ألاحظ أنني أنهض عن المائدة بفظاظة مفرطة. ألاحظ أيضًا أنني لا أمتلك المرونة التي كانت لي منذ

---

(١) عام التفيكر السحري، ص١٧٩.

(٢) نفسه، ص١٥٨.

عام مضى. يحل بك عدد معين من الأزمات والفجائع فتتوقف تلك الآلية التي تغمر جسدك بالأدرينالين عن العمل. يصبح حشد طاقتك حلاً لا يُعوّل عليه، وعملية تحدث ببطء شديد أو لا تحدث بالمرة»[1].

وحين قَرأت جوان دراسة في مجلة (ديدالوس) عن أن الأرملة العادية تستغرق سنوات لتستعيد نمط حياتها المعتاد، ومستوى رضاها عن حياتها، وتتخطى أزمتها بعد وفاة زوجها، تساءلت جوان: «أكنتُ أنا أرملة عادية؟ ماذا سيكون مستوى رضاي عن حياتي؟ وهل سأستعيد المستوى الذي كان عليه قبل رحيل جون؟»[2].

هكذا كانت تبحث جوان لتعثر على سبب يقف خلف كل إحساس أو موقف يثير تساؤلها واستغرابها بعد الفقد، وتدقق في كل تفسير ممكن له، كما في تساؤلها عن السبب الذي يدفعنا لإبقاء أمواتنا أحياء، وقولها: «نحاول أن نبقيهم على قيد الحياة ليستمر وجودهم في حياتنا.. لنبقى نحن أحياء»[3].

وتكمل جوان حديثها عن المعرفة المعذِّبة النابعة من جوابها السابق، تلك المعرفة التي لا يمكننا الانتفاع بها ولا تحويلها إلى معرفة عَمَلية، فتضيف: «أعرف أيضًا أننا إذا ما أردنا نحن أنفسنا أن نحيا يأتي وقتٌ يتوجب فيه علينا أن نتخلى عن موتانا، أن نعتقهم من تعلقنا بهم، أن ندعهم وشأنهم، أن نسمح لهم بالموت. أن نسمح لهم بأن يصبحوا صورة نحتفظ بها على الطاولة. أن نسمح لهم أن يتحولوا إلى اسم يظهر

---

(١) عام التفكير السحري، ص١٩٦.

(٢) نفسه، ص١٥٦.

(٣) نفسه، ص٢٠٧.

في حساباتنا الائتمانية. أن نترك للمياه أن تأخذهم. معرفةُ هذا لا يُهوّن علينا التخلي عنهم وعن تعلقنا بهم»[1].

وتنهي حديثها عن الوقت والنسيان، لتحدثنا عما يبقى بعد مرور وقت طويل على الفقد، بقولها: «الجنون ينحسر، لكن لا صفاء يحل محله»[2].

بهذه الشفافية العالية كتبت جوان عن تجربتها في الفقد، وملأت ثغرات لم تتمكن غيرها ممن دوّن مذكراتهن عن فقد أزواجهن من ملئها، لكن خصوصية تجربة جوان تفسر تفاقم ألم الفقدان لديها، فقد فقدت جوان جون في خريف العمر وبعد أن تزوجت ابنتها، ولم تكن جوان محاطة بالأصل بعدد من الأبناء والبنات مما ضاعف تركيزها على ذاتها بعد رحيل جون.

ويبقى أمر آخر وهو أن ألم الفقدان مهما قويَ واستشرى يظل محكومًا بسؤال المعنى، الذي يتحكم بدوره في تفسير حدّة الألم، وقد كانت جوان تفتقد المعنى أيضًا، وهذا ما سيأتي الحديث عنه في آخر صفحات هذا الكتاب.

---

(١) عام التفكير السحري، ص٢٠٧.

(٢) نفسه، ص٢٠٦.

هدهدات الحب وتهديدات الفقد
عبلة الرويني وأمل دنقل

شيءٌ في قلبي يحترق

إذ يمضي الوقتُ.. فنفترق

ونمدُّ الأيدي

يجمعُها حبٌ

وتفرقها .. طُرق!

أمل دنقل

رَضِيَتْ بالفقر والفوضى وحياة الترحل داخل المدينة وانعدام الاستقرار معه؛ فمن شِقَّة مفروشة إلى أخرى، ومن أثاث بالٍ إلى أثاث بال، كما أخبرتنا فيما كتبته عن حياتهما سويًا.

كانا أشبه بالليل والنهار في اختلافهما وامتزاجهما معًا، ففي طباعهما حدَّة وبرود، وودٌّ وصدق، وإيثارٌ للمعنى والمجد الشعري على عالم المظاهر المادية.

عن كتاب (الجنوبي) للكاتبة المصرية عبلة الرويني أتحدث، الصحفيَّة التي ذهبت لإجراء حوار صحفي مع الشاعر أمل دنقل في صبيحة أحد الأيام، فلم تجده في المكان الذي يمضي الوقت فيه عادةً لأنه كان من زوار المساء، فواصلت البحث عنه حتى لقيته وحاورته فأحبته وتزوجته رغم كل الأعذار التي ذكرها لها لينفِّرها من الارتباط به، ولئلا تتحمل دون سابق ذنب تبعات اختياراته في الحياة، فألقت عبلة بما ذكره لها من

أسباب منفّرة وراء ظهرها قائلة: «إننا سنتزوج ليس فقط انتصارًا للحب، بل انتصارًا لاختياراتك»[1].

وبعد أن صحبته في حياة الفقر والتنقل المستمر متنازلة عن بيت زوجي يجمعهما معًا، أصيب دنقل بالسرطان في السنة الأولى من زواجهما، وسكنا معهد السرطان لسنة ونصف من تاريخ تلقيه العلاج هناك وحتى موته.

كانا حبيبين وصديقين، لا يكادان يفترقان حتى قالت عبلة: «بدونا صديقين أكثر من زوجين»[2]، وعندما صرحت عبلة بعدم استساغتها لمرافقته في بعض الأماكن كمقهى (ريش) الذي كان يضج بحديث الأدب والأدباء، أقنعها دنقل بمرافقته إليه، وتخبرنا عبلة بما دار بينهما حينذاك بقولها: «أقنعني أمل بالتخلي عن منطقي البرجوازي، وتلك الوثنية التي أمارسها تجاه الأماكن، فلا يوجد مكان نحبه وآخر نكرهه، هناك فقط شخص يسعدنا الجلوس معه أو لا يسعدنا. وكانت كلماته منطقية وعادلة، فبدا (ريش) معه أجمل وأرقّ الأماكن التي تصلح للقاء عاشقين»[3].

ولأن حياتهما لا تدين إلا للشعر ولا تلتزم إلا به، فلم تكن تخضع لنظام صارم، بل كانت حياة ارتجالية فوضوية، أو بوهيمية كما تصفها عبلة، إذ ليس بعد الشعر غاية عند دنقل، وليس سوى الحب غاية عند عبلة، وفي هذه الأجواء تكونت عاداتهما، فكانا يخرجان للمشي في أي ساعة من ليل أو نهار ويغنيان في طريقهما للحرية. وكأي صديقين كانت

---

(١) الجنوبي، ص٥٩.

(٢) نفسه، ص٦٨.

(٣) نفسه، ص٥٣.

لهما عاداتهما المشتركة، وكانت القراءة أكثر تلك العادات حضورًا في حياتهما، بل حدث أن حلّت محل الطعام والشراب في إشارة من عبلة إلى اغتنائهما بالكتب عما سواها، وكما كانت عبلة تقتسم مع أمل سعادته بميلاد قصيدة، كانت تقاسمه صمته، فقال عنها: «إنها تعرف كيف تصمت معي»[1]، ولم تكن شريكة الصمت فقط، فللمرح والصخب مكانهما من حياة الزوجين؛ إذ كانا يتشاركان لعب الشطرنج، ويتداولان الفوز ويعلو احتفال أحدهما بالفوز على الآخر.

وبالمقابل فقد اعترفت عبلة مرة تلو مرة بغضبها المتكرر منه، وشجارهما الذي لا يكاد ينتهي، وتذمرها من كسل دنقل، وعدم اكتراثه لكيان أسرتهما، وما كتبه في إحدى رسائله إليها معترفًا باستمرار حبّه لها رغم ثورات غضبها المستمرة: «تغضبين وتغضبين، لكن لا يُهِم؛ فقد عودت نفسي على أن أعاملك طبقًا لإحساسي وليس طبقًا لانفعالاتك، أحبك، ولا أريد أن أفقدك أيتها الفتاة البريئة التي تكسو وجهها بمسحة الهدوء المنزلي الأليف»[2].

لم تضطر عبلة لتجميل علاقتهما بإخفاء منغصات الحياة الزوجية المعتادة، فكشفت عن شخصيتها الغضوب، ولم تكتفِ بالكشف عن نقائص دنقل وتزعم لنفسها الكمال، بل تناولت هذا وذاك، ورصدت بدقّة ذلك التنافر في شخصيته، وتلك الشدة والسلاطة التي يخفي وراءها طيبة قلبه ومودته، واعتذرت له بأن سلاطة لسانه كانت تتغيا تحطيم الحواجز والمسافات بينه ومن يكتوي بسخريته اللاذعة، كما حين سألها في أول لقاء رآها فيه عن الحبوب المبعثرة في وجهها، معتذرة له بأنه

---

(١) الجنوبي، ص٧٠.

(٢) نفسه، ص٣٠.

كان يكره الزيف والادعاء ويرى في العيوب جمالها، وكان قد قال لها: «هل تخجلين من هذه الحبوب المنتشرة في وجهك؟ وخجِلتُ بالفعل وارتبكتُ من السؤال المباغت حتى بادرني: إني أحب هذه الوجوه».[1]

كما اعترفت عبلة بمبادرتها بالتصريح له بحبها، وطلبها الزواج منه لا العكس، فلم تزعم أنه خاض إليها برك الغماد، أو أنه كان يُسرف في إبداء حبه لها، بل على العكس من ذلك، قالت: «ظلَّ دائمًا يطالبني بتأكيد حبي له، دون أن يمنحني هذا التأكيد»[2].

وفي كلمات عبلة الكثير من مشاعر الحب والقبول بالمحبوب مع عدم اليأس من محاولات تقويم مساراته، لكن الازدواجية في الجانب القيمي عند دنقل، والازدواجية في موقفه المضاد للدين، والتجاذب الوجداني عنده ما بين الإيمان والتمرد على الفكرة الدينية، وتبني الإطار الحضاري للإسلام دونًا عن الإطار الفكري، كل تلك أمور تخطتها عبلة ولم تُثر بينها ودنقل ما كانت تثيره بينهما أمور الحياة الأقل أهمية من اختلافات وشجارات، وهنا يتعاظم خطر الحب في أن يصنع من المحب تابعًا، يذوب في كون محبوبه فيتبنى ويتمثل ويتبع مساراته في الحياة دون مساءلة أو احتجاج.

وكغالب كتابات الزوجات عن الأزواج الراحلين، لم يحضر الفقد في كلمات عبلة عن دنقل، وإن فرض الموت حضوره على حياتهما، فلم تحدثنا عبلة ولو لسطور قليلة عن الجروح والندوب التي خلَّفها رحيل دنقل في القلب، وعن أفوله من حياتها، ومعاناة ذلك الأفول.

---

(١) الجنوبي، ص٨٢.

(٢) نفسه، ص٣٠.

سرٌ مقدس
غادة السمان وبشير الداعوق

اكتُبي وساحمي حرفك.

بشير الداعوق

في الكتاب المنشور عقب وفاة الناشر اللبناني بشير الدعواق زوج الكاتبة السورية غادة السمان[1]، الكتاب الذي وصِفَ بأنه (طفل الجرح الساخن) جرح أسرته وجرح كل أولئك المفكرين والأدباء الذين نشر بشير نصوصهم في مجلة دراسات عربية ودار الطليعة، في هذا الكتاب نشرت غادة ما كتبته عن فقد بشير. واتخذت كتابتها التي استغرقت تسع عشرة صفحة من الكتاب صيغة المقالات المدوَّنة تحت عنوان رئيس، وعناوين فرعية قصيرة.

وقد نشرت غادة تلك المقالات في جريدة الحوادث عام ٢٠٠٧م، وجمعت مقالاتها موضوعات مختلفة كلقائها ببشير، وقصة زواجها منه، وشروط الزواج، واعترافها له بالفضل والحماية والمساندة، ومشاعر الفقد والدموع والاستسلام للموت بوصفه قدرًا.

وفي مقالها الأول (على رؤوس أصابع دموعي) كتبت: «يبدو أنني فقدت إلى الأبد لقبي: المرأة التي لا تدمَع»[2]، فقد انهمرت أخيرًا دموع المرأة الصلبة لموت زوجها، واعترفت أنها بكت بشيرًا في سطرها الثاني،

(١) بشير الداعوق: كأنه الوداع، قدَّمت له: غادة السمان.

(٢) نفسه، ص٩.

إذ قالت: «انتحبتُ الليلة طويلاً بدموع بلا صوت، وأنا في المستشفى إلى جانب زوجي ورفيق عمري منذ حوالي أربعة عقود: بشير الداعوق، أودعه الوداع الأخير على طول تسع ساعات من محاولات الأطباء إنقاذ حياته من نوبة قلبية»[1].

وعن يوم وفاته وقلبها المعلّق بالجهاز الذي يرصد ضربات قلبه العليل قالت: «كنت أرقب الشاشة المتلفزة وهي ترسم ضربات قلبه التي تخفت شيئًا فشيئًا كما يضمحل الضوء في نافذتي الأخيرة على الفرح، ودموعي تنحدر على وجهي كما يقطر الماء المالح من السقف والجدران في المغاور النائية المظلمة. بكيتُ على رؤوس أصابع دموعي، بلا جَلَبة، ولكن بحرقة، بكيتُ بدمع القلب، ودمع العقل»[2].

وتحت عنوان (حنونًا كأم، سندًا كأب) كتبت بعض أكثر كلماتها تأثيرًا في الفقد، فقالت: «لم يتوجع في ساعاته الأخيرة -بحمد الله- كما لو كنت أتوجعُ عنه وعني معًا. وكانت تمطر داخل قلبي. تمطر خلف النافذة. تمطر بين جلدي وعظامي. تمطر داخل دورتي الدموية»[3].

وظلت غادة تمسك بيده طيلة تلك الساعات، وهي تتمنى لو مرَّرت إليه بعضًا من عمرها، فتقول: «أمسكت بيده طوال ساعات وقناع الأكسجين على وجهه وأنا أحاول أن أنقل له سيالات حبي، وأضخُّ فيه بعضًا من عمري الباقي، وأنا أعي هول فقدي له. كان حنونًا كأم، سندًا كأب، رقيقًا كعاشق دائم، سخيًا بقلبه وماله كأمير عربي أسطوري، نبيلاً وشهمًا كبطل

---

(١) بشير الداعوق: كأنه الوداع، ص٩.

(٢) نفسه.

(٣) نفسه، ص١٠.

حكاية للأطفال.. وقد فقدته.. حين استرخى قلبه، صمت الأطباء لحضور ملك الموت في الغرفة.. وها أنا مكسورة القلب وبلا أقنعة مثل جرحٍ عارٍ في الريح، أنتحب على كتف القارئ»[1].

وفي مقالة تلت المقالة السابقة تناولت غادة الفكرة التي تطرقت إليها جوان ديديون، وهي الفجوة التي يحدثها الفقد بين ما نعرفه وما نشعر به، فكتبت غادة: «أعرف الكلام العقلاني كله الذي ينبغي أن يقال في لحظات كهذه. أعرف أن نهر الحياة يقود المراكب إلى الأمام ولا يرجع للخلف ولا يبالي بمن يسقط منها في اللجّة. أعرف أن الموت يضرب لنا موعدًا غامضًا في لحظة ولادتنا...أعرف أن الموت عدالة فهو لا يستثني أحدًا...ولكن ذلك كله ليس تأمينًا ضدَّ الحزن، ونفسي حزينة حتى الموت»[2].

وتحت عنوان (من ثلاثة كتب إلى أربعين كتابًا بفضله) تحدثت غادة عن عاداتهما المشتركة بعد الزواج، من مثل انكبابهما معًا على القراءة والكتابة، وكيف أثّر هذا التشارك في زيادة نتاجها الإبداعي، إذ قالت: «وكان عليَّ في السنوات الأولى من زواجنا متابعة حياتي الاجتماعية وحدي، أو البقاء معه في البيت خلف طاولتي مقابل طاولته في غرفة المكتبة. وجربت معه حياة الانكباب على القراءة وتثقيف الذات بعيدًا عن الأضواء.. وفوجئت بأن الأمر لم يضايقني بل انعكس إيجابًا على إنتاجي.. تزوجنا وقد أصدرتُ ثلاثة كتب وأودّعه بأربعين كتابًا وثلاثة أخرى جاهزة للنشر، وعشرات الكتب المترجمة إلى أربع عشرة لغة،

---

(١) بشير الداعوق: كأنه الوداع، ص١٠.

(٢) نفسه، ص١٦.

ودرزينة من الكتب التي تدرس أعمالي. أي أن حضوره كان نعمة في حياتي الأدبية، وكم تفتقده كتبي وبوماتي التي أَحَبَّها أيضًا ودلَّلَها رغم أنف (التقليديات)»[1].

أما أطرف عبارة رومانسية في الكتاب، فوردت أثناء حديثها عن مقابلتها لوالدة بشير، واستعارتها حقيبة وحذاء من قريبتها هدباء ابنة الشاعر نزار قباني التي اقترحت عليها لباسًا ترتديه لهذه المناسبة، فملابس غادة كانت لا تناسب لقاء سيدة أرستقراطية فقد كان لباسها «(هيبي) أو (ميني جوب) على موضة صبايا ذلك الزمان»[2]، وعقبت غادة على هذا الموقف بقولها: «بعد الزيارة الناجحة اعترفتُ لبشير بسرّ الحقيبة الأنيقة الكلاسيكية والحذاء، فقال ضاحكًا: كان بوسعك الحضور حافية كسندريلا.. ستتزوج على أية حال وكيفما كنتِ»[3].

ويبقى أن غادة لم تحذُ حذو غيرها من الكاتبات في كتبهن عن أزواجهن، فرغم أن زوجها كان أكاديميًا واقتصاديًا، وسياسيًا حزبيًا، وناشرًا ومثقفًا يساريًا، فلم تكتب عنه سيرة، ولا شك أن حياته ضمَّت أحداثًا كثيرة حريَّة بأن تُسَجَّل، وأن تُذكَر، مثل تلك المحاكمات التي واجهها بشير بسبب كتب كان قد نشرها باعتباره مالكًا لدار الطليعة، ومثل اجتماعات حزب البعث في قصر أسرته، وأحداث أخرى، إضافة إلى أحداث تتصل بعلاقتهما معًا، لكن يبدو أن غادة الحريصة على إخفاء كل ما يتعلق بحياتها الخاصة، شَحَّت على القراء بهذا أو وَكَلته لغيرها

(١) بشير الداعوق: كأنه الوداع، ص١٧.

(٢) نفسه، ص٢٣.

(٣) نفسه.

من زملاء بشير، أو ربما أعدَّت شيئًا للنشر بعد رحيلها، فقد عوَّدت غادة قراءها على تفجير المفاجآت من حين لآخر.

واللافت أن غادة التي نشرت رسائل غسان كنفاني إليها دونًا عن رسائلها إليه، ونشرت رسائل أنسي الحاج إليها دون أن تنشر رسائلها إليه، تعاملت مع حياتها الزوجية بسرِّية فائقة، وكأنها تحميها من النميمة التي تروق لقراء الصحف الصفراء، ويتهامس بها الفضوليون في المناسبات الاجتماعية، ورغم أنها رثته على طريقة العرب بذكر مآثر بشير، لكنها لم تزد على ذلك.

وليس لها بعد الرثاء من حديثٍ عما بعد الفقد، عن تأثيره فيها بعد حياة طويلة مع زوجها، حياة حافلة ومكتظة بالأحداث، لقد اكتفت غادة بالحديث عن الجانب الأضيق وتركت لغيرها الحديث عن جوانب أخرى من سيرة زوجها، وهكذا تخلت غادة حتى عن دور الشاهد في كتابتها عن بشير، فغادة التي تعشق الغموض والمفاجآت والتمرد على السائد، لم تسائل صمت المرأة العربية في هذه المنطقة الحساسة، ولم تزد تلك الكاتبة المتمردة كما تصف نفسها على الوقوف عند دور الرثاء في ساحات العزاء، ثم ولَّت متلفعةً بصمتها وغموضها دون أن تضيء ما كانت قادرة على الإبحار فيه بقلم مقتدر.

مطرقة النسيان
سعاد وعمر أبو ريشة

أنا في الكأس التي أسري بها
أغرفُ العمرَ الذي صارَ سُعادَا

عمر أبو ريشة

صدَّرَت المؤلفة كتابها[1] بـ(إهداء إلى روح ملهمي)، أهدت فيه كلماتها إلى زوجها الشاعر الراحل عمر أبو ريشة. وفي كلمات الإهداء ما يُسفر عن روح الكتاب، إذ قالت سُعاد: «إني أجلُّ قولاً أنت قائله... وأجيز للتكرار أن يتردد. ففي التكرار نفخ يقظة الذكرى. تنثر العزاء على نفس يائسة.. وتبعث الأمل في قلب هذه الألم. إني لقولك أحني الرأس صاغرة، وأسعى لأنفذ ما عاهدتك به»[2].

فمشاعر الوجد والفقد المصطبغة بالتعظيم المطلق لعُمَر، هي روح الكتاب، وأما عهدها الذي عاهدت به سعاد عُمَرًا، فقد ذكره الدكتور فوزي عطوي في تقديمه للكتاب، إذ قال: «استوقفتني في الرسالة الشخصية التي شفعت المؤلفة الكريمة بها مخطوطة الكتاب عبارة تقول لي فيها: فأنا يا دكتور فوزي، أسعى إلى إحياء ما هدأ، وإيقاظ ما غفا في أدراج الأمس، وتحت غبار الإهمال، فقد قال لي عمر يومًا: يا سعاد، لا

---

(١) أبكي على زمن خلا من شاعر مثل عمر.

(٢) نفسه، ص٥.

تحطميني بمطرقة النسيان؛ وقد عاهدته أن تكون ذكراه محور الأيام التي بقيت لي على هذا الكوكب، ولهذا أرفع راية الوفاء»[1].

وقد لاحظ الدكتور فوزي سمة التقديس في كتابة سعاد، وعلَّقَ عليه بقوله: إن «المؤلفة تكن للشاعر أصفى مشاعر الود والتقديس»[2].

وهذا أيضًا ما لاحظَته ودَوَّنته الشاعرة إنصاف الأعور في تقديمها الذي تلا تقديم الدكتور فوزي، إذ قالت: «وبقدسية عجيبة تتحدث عنه وكأنه إله، كأنه قدّيس، لهذا ثارت على الكتمان، حيث أذهلها غياب عمر.. فقدان عمر.. عمر الذي شَغَلها.. وأشعَلها.. وأنهضها وجعلها تولد من جديد، وكأنه يريد بها استمرارًا له، فقد كان يأمرها وهو الضليعُ في معرفة الأمر، كان يأمرها فيقول في إحدى القصائد:

كوني كما أريدك أن تكوني

إعصار ثورتي وعصف جنوني

كوني.. كوني

لكنت أبدعتك لو لم تكوني»[3].

لقد احتمت سعاد في مذكراتها بمقدمات أصدقائهما، وكأنها تتفادى المواجهة المباشرة مع القارئ، وقد وفَّت في مذكراتها هذه، والكتاب الذي أصدرته بعدها عن عمر بوعدها له ألا تحطمه بمطرقة النسيان.

ومذكرات سعاد عن عمر ليست مرتبة على الأحداث، والتسلسل

---

(١) أبكي على زمن خلا من شاعر مثل عمر.، ص٧.

(٢) نفسه، ص٧.

(٣) نفسه، ص١٦.

الزمني، فقد قامت على استدعاء ما جادت به الذاكرة الواعية (التي تمرّدَت على رياح السلوان) بحسب قولها.

والحضور الوجداني في مذكراتها قويّ جدًا، وهو ما حرصت عليه الكاتبة بصورة طغت على حرصها على حفظ سيرة الشاعر بصورة موضوعية صِرفة كما صنعت بوران زوجة علي شريعتي في كتابها عنه، ولعل في عنوان الكتاب (أبكي على زمن خلا من شاعر مثل عمر) ما يشفع لطغيان الجانب الوجداني لديها.

وقد بلغ من تقديس سعاد لأبي ريشة أنها صرّحت في غير موضع من كتابها أن لو كان لها أن تعبده لعبدته، وقد خلعت عليه من صفات الألوهية ما خلعت، ولم تنتقد له رأيًا ولا موقفًا، بل كان محقًّا على الدوام، ويبصر ما لا تبصره، والطريف أنها ذكرت أنها كانت تمنعه من الذهاب إلى الحلاق لحلاقة شعره، فقد كانت تتولى هذا بنفسها، وقد جمعت فضلات شعره طيلة خمس عشرة سنة هي عمر زواجهما.

ويبدو لي أن سعاد رضيت من علاقتها بعمر بمنزلة الملهمة المعشوقة المغناج، ولم يعد يهمها بعد ذلك شيء؛ فرغم حب عمر الكبير لها فلم يكن يتردد في وصفها بالقاصر، ونعتها بالغبية في أكثر من موضع، ولم يكن يراها رغم كِبَر سنّها -إذ تزوجها في ستِينه وهي في أربعينها- على دراية بالمشاعر، ولا فهم للناس، ولا الحياة... وهي لا تذكر هذه النعوت بصيغة استياء ولا نقد، ولا أرى في مذهبها هذا إلا استمراءً للتسفيه، إذ الحب والاحترام قرينان لا يفترقان.

ولم يكن ما ذكرته سعاد من هذا مجرد استثناءات عابرة، ضخّمتها العين الناقدة، ففي كتاب سعاد تكرارٌ لأمر عمر لها ألا تقاطعه أثناء كلامه

بأسئلتها «السخيفة»، وتوبيخها كلما قاطعته، فله الحديث، ولها الإصغاء لا غير، على أن الحب لا يقتضي إلغاء شخصية طرف لصالح طرف، ولا تنزيهه مطلقًا من العيوب، لكن من اعتاد أن يكون ظلاً وحسب، لن يخرج عن طبيعة الظل، إذ يتشكل بتشكل صاحبه، ويتحرك حيث يتحرك، ويزول بزواله.. فلا قيمة معنوية للظل، وهكذا هي كل علاقة تبدأ وتنتهي بطرف واحد.

وهكذا كانت مذكرات زوجة الرئيس المصري الراحل جمال عبد الناصر، إذ تنتمي لهذا الصنف من الشخصيات الظِلال كما أسميها.

البحث عن خيانة
هنرييت عبودي وجورج طرابيشي

هل ستأتي أخيرًا اللحظة التي

لن أفارقك فيها أبدًا؟

جورج طرابيشي

أهدت هنرييت كتابها[1] إلى بناتها الثلاث من جورج: مايا وريما وياره. وقدَّم له الناشر السعودي ذاكرًا أن الكتاب عبارة عن محاولة لكتابة سيرة جورج من خلال أيام الزوجة المفكّرة معه، وأن تأليفه نابع من الحرص على معرفة مالا يُعرف عن حياة الزوج -الذي لقبه الناشر بالشيخ- وما يتعلق بـ: «تقلباته الفكرية، المنفى والوطن، الأصدقاء والأعداء. عن تفاصيل شغفه، البحث والكتابة»[2].

وقد مثَّلت علاقة جورج وهنرييت علاقة زوجين مثقفين كغادة وبشير، لكن هنرييت كانت أكثر سخاءً من غادة في الحديث عن حياتهما الخاصة، كحديثها عن رسائل فترة الخطبة التي استمرت خمس سنوات، واحتفظ بها الزوجان في حقيبة بقيت مغلقة لخمسين سنة هي عمر زواجهما؛ إذ لم تفتح هنرييت حقيبة الرسائل إلا بعد رحيل جورج.

---

(١) اللحظة الآتية: أيامي مع جورج طرابيشي.، تأليف: هنرييت عبودي، قدم له: تركي الدخيل.، الناشر: دار مدارك للنشر ٢٠٢٠م. والكتاب يضم بالإضافة إلى مقدمة الناشر وما كتبته هنرييت عن جورج، حوارا أجراه الدخيل معها عام ٢٠١٦م، كما يضم مقالة أخرى كتبها صديق جورج محمد عبد المطلب الهوني.

(٢) نفسه، ص٢٠.

ومما ذكرته هنرييت أيضًا من أمور خَفِيَت عن قرّاء جورج وتَشِي بالقرب الشديد بينهما حديثها عن استياء جورج من اسمه، وعادة جورج في تفتيت الخبز على المائدة، وتحليله لهذا العادة بتمزيق الأب، بعد قراءة جورج لأعمال فرويد في التحليل النفسي وترجمته لها، وكانت علاقة جورج ووالده قد مرّت بمرحلة عسيرة في فترة من الفترات، ولم يتمكن جورج من فهم تصرفاته المتأثرة بعلاقته بوالده إلا على ضوء التحليل الفرويدي، ومما ذكرته عن جورج مما يندرج في هامش الأحداث اليومية، حديثها عن المتسول الذي كان يَخُصُّه جورج كل يوم بسيجارة رغم إقلاعه عن التدخين منذ بداية السبعينات لإصابته بذبحة صدرية.

وقد بلغت علاقة جورج وهنرييت من العمر ما يكفي لإزالة حاجز الأسرار بينهما، بل لم تعد بحاجة لمعرفة ما أصبح بوسعها معرفته من دوافع تصرفاته أو تفسيرها نتيجة عشرتها الطويلة معه.

وكانت هنرييت صريحة إلى الحد الذي اعترفت فيه بتحاملها على جورج قبل لقائه عندما جيء لها بقصته الفائزة في مسابقة القصة القصيرة مطلع شبابه فأوسعتها نقدًا لاذعًا، ثم ذكرت أنها عادت إليها بعد حين، فوجدتها قصة إنسانية لا مُغرقة في الميلودراما كما وصفتها سابقًا، وفسّرت هنرييت نقدها الأول بقولها: «كأنَّ نجومية هذا الشاب قد نالت من مكانتي داخل دائرة أصدقائنا المشتركين»[1].

كما تحدثت عن لقائها الأول بجورج حين زارها بصحبة صديق، واستقبلتهما في غرفة مزودة بمكتبة ورأت هنرييت جورج يدقق في عناوين الكتب فقالت له: «إن كنت تبحث عن رائعة أدبية فإني أنصحك

(١) اللحظة الآتية، ص٣٨.

بمطالعة هذا المؤلف»[1]، وأعطته كتاب سيمون دي بوفوار (المثقفون) من على الرَّف، وطلب استعارته فأعارته له قائلة: «شرط ألا تعيده لي ممزقًا»[2]. وكان هذا الكتاب الذي أعاده بعد أسبوع ووعَدَها بترجمته، وأنجز وعده، هو فاتحة العلاقة بينهما.

والطريف أن الحدث الذي أوقعها في حبِّه هو أنه كان يملك كنزة يتيمة (خضراء اللون بخطوط بنية) يرتديها تحت البدلة رغم عدم ملاءمتها للبدلة أبدًا، وكان يتحايل لإخفائها، كما كان قد صارح هنرييت وقتها أنه سيشتري كنزة جديدة إذا تقاضى راتبه الشهري، لكن ما حدث بعد أسبوع، حين استلم جورج الراتب هو أنهما كانا قد تحدثا عن رواية (الممسوسون) لدوستيوفسيكي فما كان من جورج إلا أن اشترى كل مؤلفاته بالفرنسية مؤجلاً شراء الكنزة إلى وقت آخر.

وتُعلِّق هنرييت على هذا الموقف فتقول: «والواقع أن الكتب والحديث عن أفكارها والسجالات حول رؤاها كانت منذ البداية زاد علاقتنا اليومي. فقد كنا نذرع طرقات حلب ذهابًا وإيابًا ونحن نتحدث عن آخر بطل روائي تعرَّفنا عليه، أو عن أحدث بحث أو عمل فلسفي أو نقدي أتيحت لنا فرصة مطالعته، وكان يحصل أن نصطدم، غير أننا كنا نتفق في معظم الأحيان»[3].

ومع التحول الذي اعترى جورج من قارئ إلى مفكر ومترجم وناقد وباحث، أخذت علاقتهما طابعًا جديدًا لم يخلُ من الغرابة والطرافة كما وصفته هنرييت، وأطلقت عليه اسم (الدخيل) أو (الطرف الثالث) قائلة:

---

(١) اللحظة الآتية، ص٣٩.

(٢) نفسه.

(٣) نفسه، ص٤٦.

«كان يحلو لي أن أمازحه قائلة: لقد أصبحت علاقتنا ثلاثية، فهناك على الدوام من يحشر نفسه بيننا، وكان هذا الدخيل إما فرويد، أو هربرت ماركوز، أو عبد الرحمن منيف، أو محمد عابد الجابري، أو سواهم من المبدعين»[1].

وقالت في موضع آخر عن ذلك الدخيل: «وكانت إقامة (الدخيل) في علاقتنا الزوجية تطول أو تقصر بحسب الظروف، فلأسباب تعذر علي إدراكها كانت هيمنة الطاغية تنحسر على حين غرة فتنقلب صفحته، كيما نباشر عهدنا مع (ضيف) جديد»[2].

أما أطول إقامة سجَّلها الدخيل في حياتهما الزوجية فقد كانت إقامة المفكر المغربي محمد عابد الجابري الذي لم يفارقهما طيلة عشرين عامًا أو أكثر، واحتلَّ منزلهما ماديًا ومعنويًا على حدِّ وصفها.

وكان جورج لعدم معرفته التعامل مع الكمبيوتر قد طبع مئات الأوراق ورتبها بطريقة معينة، ومنع أسرته من مسّها أو محاولة ترتيبها لئلا تختلط عليه.

ولما كانت العادات المشتركة بين الزوجين تفرض حضورها في حياتهما، فقد كان الإثراء والمعاونة وشد الأزر كذلك يفرضون حضورهم في تلك العلاقة، ومن المواقف اللطيفة التي ذكرتها هنرييت وتوضح هذه الفكرة، أنها احتاجت لتعلم قواعد اللغة العربية وإجراء امتحان لتعديل شهادتها، فعلَّمها جورج أصول الإعراب، وتصريف الأفعال، وتقطيع الأبيات الشعرية، ودراسة النص الأدبي، وغيرها في أربعة أيام.

---

(١) اللحظة الآتية، ص٤٧.

(٢) نفسه، ص٤٨.

وفي الاقتباس الآتي تكشف هنرييت أثناء حديثها عن هذه التجربة سمة في علاقتهما وهي التحدي والانتقاد، فبعدما نجحت في امتحان اللغة العربية وحصلت على درجة جيدة كان جورج: «يتباهى أمام أصدقائنا قائلاً: «(علَّمتُها في أربعة أيام، ما يُعَلِّمهُ سواي على مدى سنة)، وكنتُ أجيبه: (الفضل للتلميذة، لا للمعلم فحسب). ولم تكن هذه العبارة مجرد مداعبة فقد اتسمت علاقتنا منذ عهدها الأول بقدر من التحدي المتبادل، ولم يَحُل إعجابي الشديد به دون معارضته، بل انتقاده. كنت أرفضُ المصادقة على بعض آرائه ومواقفه بحجَّة أنني أحبه، ولطالما اختلفنا بصدد ما كان يصفه بنزعتي الفردية المقدسة»[1].

ومما ذكرته من أحداث حياتهما معًا وتتجسد فيه الفكرة السابقة عن خوض الحياة معًا متعاضدين متساندين، أنه لم يكن لديهما بيت أول زواجهما وكانا يقيمان في فندق حتى امتلكا بيتًا، وكان شبه خال من الأثاث، إذ كان يشمل غرفة نوم وستة كراسي خيزران أُهْدِيت إليهما. وحدث أن هاتَفَها جورج ذلك الوقت في عملها وأخبرها أنه دعا ثلاثة من أصدقائه لتناول الغداء في المنزل- أحدهما شَغَل فيما بعد منصب وزير الداخلية في العراق- وذكرت هنرييت كيف دبَّرت وقتها طاولة طعام للضيوف بالاستفادة من القطع المتاحة لديهما آنذاك؛ إذ قلبَت صندوق الكتب، ووضعت عليه مفرشًا مزخرفًا.

ولم تكن تلك هي المرة الوحيدة التي يضطر فيها الزوجان لعيش تجربة البيت شبه الخالي من الأثاث، بل عاشاها مرتين أُخريين، إحداهما في بيروت حينما قرر جورج مغادرة سوريا خوفًا من إطاحة البعض به،

---

(١) اللحظة الآتية، ص٥١.

ووجد في دعوة بشير الداعوق له من أجل العمل في لبنان مخرجًا مما هو فيه، فادعى أنه سيذهب إلى بيروت للإعداد للدكتوراه في الأدب العربي، وبهذا حصل على إذن بمغادرة البلاد، وقد اضطرهم هذا الانتقال المفاجئ إلى التفريط بمعظم أثاث بيتهم؛ فقد كان نقل الأثاث يتطلب ترخيصًا قد يثير طلبُه شكوك المباحث آنذاك، وفي هذا تقول هنرييت: «كنا قد أثثنا بيتنا تدريجيًا، وكانت لكل قطعة منه قصة، فسجادة غرفة الجلوس كنا قد اشتريناها من التعويض الذي تقاضاه جورج لقاء ترجمة كتاب هربرت ماركوز (الإنسان أحادي البعد)، أما غرفة الطعام ذات المقاعد الجلدية الحمراء فكانت ثمرة عام من البرامج الثقافية الأسبوعية قدَّمتُها في إذاعة حلب، في حين يدين مكتب جورج بوجوده إلى كتابه (الدولة القُطْرِية)، وهكذا دواليك.. لم نحمل معنا إلى بيروت سوى مكتبتنا التي جرى تحميلها على ظهر سيارة بوسْطة، واللوحات المهداة -إلينا- وهكذا حططنا للمرة الثانية في دارٍ خَلَتْ من كل أثاث، ولكن مع طفلتين هذه المرّة»[1].

ثم تكررت التجربة للمرة الثالثة وكانت عند رحيلهم إلى باريس؛ عندما اندلعت الحرب الأهلية في لبنان وباتت الأوضاع في بيروت غير مريحة، ولأسباب أخرى قاهرة تدهورت معها أوضاعهم المادية. وكان جورج قد تلقى دعوة للعمل في مجلة (الوحدة الشهرية) هناك فاغتنم الفرصة، وهاجر وأسرته إلى فرنسا، وتصف هنرييت الأمر قائلة: «وللمرة الثالثة واجهنا مشكلة الدار الخالية من كل أثاث، فقد رحلنا إلى باريس محمَّلين بحقائب ملابسنا فحسب، ولم ننقل معنا هذه المرة مكتبتنا! أجل فقد كنا مضطرين إلى التخلي عن أغلى كنز نملكه، عن أعمال مهداة

---

(١) اللحظة الآتية، ص١٢٥.

من قبل مؤلفيها، وعن مجموعـات ثمينة من الروايـات العالمية، وعن معاجم وموسوعات مكثنا على مدى شهور نسدّد ثمنها، عن مسرحيات وأبحاث ودراسات أمضينا سهرات طويلة ونحن نتناقش حولها»[1].

أما مصير الكُتب العزيـزة على قلبيهما فقد كان مأسـاويًا،كما قالت هنرييت: «لقد تخلينا عن موضوع حبنًا المشترك (الكتاب) فبادرنا إلى توزيع ما كنا اكتنزناه عاما بعد عام، والأسوأ من ذلك أننا أحلنا إلى صناديق القمامة مجموعات كاملة من الأعمـال الفكرية اليسـارية التوجُه. وقد أقسَمتُ يومها ألا أشـتري كتابًا ما دمت على قيد الحياة. وقد احترمت هذا القَسَم، فأنا أتردد على المكتبات العامة لاستعارة الكتب التي أرغب في مطالعتها- أما جورج- فكتاب واحد حمله معه جورج عندما غادرنا لبنان في صيف ١٩٨٤م، هو (نقد العقل العربـي) للمفكر محمد عابد الجابري»[2].

ولـم تخل كتابة هنرييت من النقاط الفكرية المشتركة بينها وجورج، ومن ذلك حديثها عن نسـويتها ونِسـوية جورج حينما نشـرت هنرييت مقالاً قالت فيه إن دخول المرأة لميدان العمل وقيامها بمهام كانت تقليديًا حكرًا على الرجل، يُحتِّم على الرجل القيام بمهام مازالت تقليديًا حكرًا على المرأة، مثـل العناية بالطفل والبيت ونظافتهمـا أثناء غياب المرأة. فلاقت المقالة عتابًا باعتبارها تؤثر على سمعة جورج، وردَّت هنرييت على من عاتبها بأن جورج يجاهر بمواقفه النسوية، وهو مثلها من أنصار سـيمون دي بوفوار. أما جـورج كما قالـت هنرييت فقد ترجـم مواقفه

---

(١) اللحظة الآتية، ص١٣٦.

(٢) نفسه، ص١٣٦-١٣٧.

النسوية بتغييره لابنته الرضيعة في حضور ضيوفه رغم أنها لم تبكِ، ولكن «ساعة الغيار قد أزفت»[1].

وقد انتبه جورج للفارق بينه وهنرييت، فقد كان جورج يتبرَّم من اسمه لكشفه عن انتمائه الديني، في حين أن هنرييت لا تفعل، وقد صارحها بهذا، وذكرته هنرييت في الكتاب قائلة: «وقد أدهشني ذات يوم وبعد أعوام مديدة قد انقضت على زواجنا عندما صارحني قائلاً: (أنت جذورك مغروزة في الأرض، وهذا ما يجعلها راسخة ثابتة، أما أنا فأسعى إلى إرساء جذوري في مبدأ، في أيديولوجيا، في عقيدة، أي في أرضية قابلة للتحول، لذلك ترينني دائما أعاني من القلق)»[2].

وتفشي حواراتهما العاطفية التي دوَّنت هنرييت بعضها في الكتاب مشاعرها تجاه جورج، كحديثها عن إصابة جورج بالذبحة الصدريه في الثلاثين من عمره، وإجرائه عملية جراحية عند إقامتهم في بيروت، وخضوع جورج وقتها لحمية غذائية، وفي هذا تقول هنرييت: «لقد أُخضع جورج لحمية صارمة فتوجَّب عليَّ أن أؤمن له باستمرار وجبات طعام تتناسب مع هذه الحمية، وذات يوم شتويٍّ ممطر عدتُ فيه إلى البيت مبللة الشعر والثياب، ومحمَّلة بالأكياس، قال لي جورج وهو يبتسم بحزن: (ألا زلتِ تشعرين بنفسك في موسكو؟) فأجبته على الفور: (أجل، طالما نحن معًا)»[3].

(١) اللحظة الآتية، ص٧٦.

(٢) نفسه، ص١٠٥.

(٣) نفسه، ص١٢٦-١٢٧.

ومن لحظاتهما المشتركة الأخرى لحظات اللعب سويًا، فقد كانا يلعبان الورق يوميًا، فكانا يلعبان ويتخاصمان أحيانًا فيتوقفان عن اللعب لمدة أسبوع، ثم يعودان لسابق عهدهما ويعاودان الخصام فالرجوع للّعب وهكذا.

ومن تقلبات هذه الحياة التي خاضا أمواجها العاتية معًا إلى السكون الأخير، إلى مشاعر الفقد، وانحسار كل شيء، أخذت هنرييت تتحدث مبدية ما كان يعتريها من أفكار غريبة بعد وفاة جورج، فذكرت كيف تأثرت بفقده إلى مدى دفعها إلى البحث في جيوب بدلاته الرسمية عما قد يشير لوجود علاقة نسائية أخرى قبل وفاته، فرغم اعترافها أنه كان: «مؤمنًا بالحب، مؤمنًا بالإخلاص في الحب»[1]، قالت هنرييت: «هو كذلك بالفعل، إذ بعد رحيله قمنا بالبحث في بدلاته الرسمية، وملابسه، كي نفرغها من الأوراق التي قد توجد بداخل جيوبها، وفي داخلي كنت أبحث عن رسالة قد تكشف علاقته بامرأة أخرى، لعلي أخفف من وطأة ألمي، لكنني أضحك الآن على الطريقة التي كنت أفكر بها»[2].

وبعد أن كانت عاداتهما المشتركة مصدر سعادة لهما، باتت تلك العادات مصدر ألم لها، فبعد الأيام الأولى من رحيله قالت: «شعرت بغبن، سكنني وغادرني، هو مسكين توفي ولكنه ترك فراغًا كبيرًا في داخلي، ويمكن لك أن تتخيَّل أنه مرَّ على رحيله أربعة أعوام، ولكنني لا أستطيع أن أستمع إلى الموسيقى، ولا أن أسمع إلى أم كلثوم أو

---

(١) اللحظة الآتية، ص١٦٠.

(٢) نفسه، ص١٦١.

عبد الوهاب، لأننا كنّا نخرج بالسيارة يوميًا ونستمع لهذه الأغاني، أما الآن فلستُ قادرة حتى أن أستمع للموسيقى الكلاسيكية التي اعتدنا سماعها سويًا، لذلك عندما حُرِمت ذلك الحب شعرتُ بألم كبير، وهذا دليلٌ على أنه كان حُبًا مطلقًا بالفعل»[1].

وختمت هنرييت كلماتها عن جورج بقولها: «في إحدى رسائلك كتبتَ تقول: (هل ستأتي أخيرًا اللحظة التي لن أفارقك فيها أبدا؟) وها أنا أردد اليوم مع بداية كل نهار جديد: (متى ستأتي اللحظة التي لن أفارقك فيها أبدا؟) فالحياة من بعدك قد فقدت مذاقها، وإن كان لي من مأخذٍ عليك، فكونك قد غمرتني بحبٍّ يستحيل العيش في غيابه»[2].

مثلت كتابة هنرييت عن جورج بالنسبة إلي نموذجًا متميزًا، فقد استطاعت أن تنهض بالموضوع الذي لأجله كان الكتاب بوعي، وأن تلامس حياتهما المشتركة، بحلوها ومرّها، دون الوقوع في سرد ذاتي عن سيرتها الشخصية من خلال زوجها، بل أرَتنا كيف، وأين، كانت تقع أعمال جورج ضمن أدواره الأخرى، باعتباره الزوج والأب المسؤول عن إعالة أسرته، وكيف ساهمت تلك الأعمال الفكرية والمترجَمة في تشكيل حياتهما، في حين ينظر إليها القراء بصفة مجردة عن الظروف التي حفَّت بإنتاجها والعوائد والآثار الناتجة عنها.

وقد لامست هنرييت في سردها عما بعد الفقد ما يحدثه ألم العادات المشتركة في النفس من شروخ عميقة، كما أفصحت عن تلك المشاعر التي تحمل المكلوم على التفكير بطريقة تجافي المنطق أحيانًا، وإن لم تُطِل هنرييت في هذا.

---

(١) اللحظة الآتية، ص١٦٢.

(٢) نفسه، ص١٥٥.

اليَدُ الفارغة
سوزان وطه حسين

أنتِ ضيائي حاضرة أم غائبة ..

طه حسين

كتبت سـوزان طه حسـين عن أيامها مع زوجها الأديـب العربي طه حسين وهي في الثمانين من عمرها[1]، وانهمرت ذاكرتها بغزارة مؤثرة، رغم الفوضى التي اتسـمت بها كتابتها الأشـبه باليوميـات والذكريات المبعثرة، كحبات العقد المتناثرة بعد أن فقْدت خيطها الناظم.

وقد ضمَّ كتابهـا (معك) ذكرياتها مـع طه، ورسـائل تبادلاها معًا في أوقـات مختلفـة، وأحـداث وصراعات ورحـلات ثقافيـة وأدبية وسياسـية، واختلـط حديثها عنـه بحديثها عـن أبنائهمـا وأصدقائهما وخدَمهما أيضًا.

كتبت سـوزان وحضور الأسـرة يملأ كيانها وكتابها معًا، وجسَّدت كتابتها المرأة العصامية التي كانَتها، الزوجة والأم وربة البيت، وسـيدة المجتمع، والشخصية الثابتة على التزامها بخياراتها في الحياة لا بحبها لزوجها فحسـب، منذ التقائها به طالبًا في باريس وحتى آخر لحظة من لحظات حياته.

وقد أدركت سوزان أن غاياتها وطه من هذه الحياة لا تتصل بالسعادة

---

(١) معك، ترجمة: بدر الدين العروكي، مراجعة أمين محمود العالم.

بل بقيمة ما يبذل الإنسان له عمره، فتنقل في أوائل الصفحات قول طه الذي آمنت به وعاشت وفقًا له: «إننا لا نحيا لنكون سعداء، ولا حتى لنجعل الآخرين سعداء»[1]. وتعلق: «عندما يكون شأن المرء شأن طه فإنه لا يعيش ليكون سعيدًا وإنما لأداء ما طُلب منه»، وتضيف: «كنت تعرف أنه لا وجود لهذه السعادة على الأرض»[2].

كما أدركت سوزان أن ما تقدمه لطه كان يزيد عن الحب برسالية فائقة، وهذا ما بقي في ذهنها من كلمات أثبتتها عن صديقة قالت لها أن عليها أن تضطلع بتأدية هذه الرسالة. ولا تتمثل هذه الغيرية المضادة للأنانية عند سوزان في قيامها بما وهبت له نفسها فحسب، بل حتى في صياغة عنوان كتابها كما لاحظ من كتب تذييلاً للكتاب، فقد كانت طيلة حياتها مع طه ترفض الحديث عن نفسها في اللقاءات والمقابلات الصحفية، قائلة: «حينما نملك سعادة أن نعيش في ظل رجل عظيم أرى أن علينا أن نتضاءل كثيرًا وأن نساعده بقدر ما تتيحه لنا إمكانياتنا»[3].

ورغم كل ما بذلته من جهد عند كتابتها عن طه في ثمانينها، فقد اعتذرت عما لم تذكره من أيامها معه بقولها: «قلنا لبعضنا كل مالا نستطيع حصره بكلمات، ليغفر لي حبيبي هذه الصورة الباهتة»[4].

وعن التقاء قلبيهما عام ١٩١٥م واتخاذها قرار الموافقة على الزواج من طه بعد أن أفضى إليها بحبه، وبعد ما كان من معارضة أسرتها في البداية لزواجها بمسلم وأعمى، كتبت: «ربما كان الأمر جنونًا لكني

---

(١) معك، ص٢٥.

(٢) نفسه.

(٣) نفسه، ص٢٤١.

(٤) نفسه، ص٤٢.

اخترتُ حياة رائعة»[1]، قالته رغم ما جابهاه معًا من محَن أدركت سوزان منذ اللحظة الأولى أنها تندرج في التزامها تجاه هذا الحُب، وكما قالت: «تعلمتُ أن آخذ نصيبي من كل المحِن التي اختصَّت بها حياة الرجل الذي أُحِب»[2].

كانت سوزان لطه اليدَ التي تسنده، والقلبَ الذي يضمُّه، والعينَ التي يبصر بها طريقه في الحياة، والحسَّ الذي يتذوق من خلاله الجمال والفن لا اللغة وحدها. وقد عبَّر طه عن هذا أبلغ تعبير في رسالة نشرتها في الكتاب يخاطب فيها سوزان فيقول: « أنتِ ضيائي حاضرة أم غائبة»[3]. وكان طه يسميها أستاذته، كما في قوله: «كانت صديقتي، أستاذتي، فأنا مدينٌ لها أن تعلَّمتُ الفرنسية، وأن عمَّقت معرفتي بالأدب الفرنسي، وأنا مدين لها أن تعلمت اللاتينية، ونجحت في نيل درجة إجازة الآداب، وأنا مدينٌ لها أخيرًا أن تعلمت اليونانية واستطعت أن أقرأ أفلاطون في نصوصه الأساسية»[4].

وعن الارتباط الشعوري الوثيق بينهما كتبَت: «لسنا معتادين أن يتألم الواحد منا بمعزل عن الآخر»[5]، وهنا تنثر سوزان كلمات عن الحب والغياب فتقول: «أولئك الذين يتحابُّون حقًا يعرفون أن الحب حاجة إلى حضورٍ مستمرٍ، حتى وإن لم يكن هذا الحضور حضورًا ماديًا»[6].

---

(١) معك، ص٣٢.

(٢) نفسه، ص٢٤.

(٣) نفسه، ص٤٦، ٤٨.

(٤) نفسه، ص٢٥٤.

(٥) نفسه، ص٢٧.

(٦) نفسه، ص٥١.

ويتدفق في حديث الرسائل التي كتبها طه لها عند سفرها، ذلك الالتصاق الحسّي والمعنوي بين الزوجين، فلم تكن سوزان لصيقة اليدَ التي طالما ضمَّتها إلى ذراعها، بل لصيقة الروح والفكر، وربما أكثر، وأكبر، كما في قوله لها: «لعلِ ما بيننا يفوقُ الحب»[١]، وقوله: « بدونك أنا أعمى حقًا»[٢]، و «ما أغرب الأمر كنت أظنني سأتسلى في غيابك بإنتاج غزير ولكني لا أُنتجِ شيئًا»[٣]. وقوله: «اعذري أفكاري فأنا لا أفكر، وإنما أحب، ما أصعب قول ذلك! لن يعرف الإنسان نفسه على الإطلاق وسيبقى دومًا في أنفسنا شيءٌ ما، نستشعره دون أن نفهمه مطلقا»[٤]. أما آخر رسائله إليها في غيابها الذي استمرَّ لثلاثة أشهر، فقد كانت: «أحبك وأنتظرك ولا أحيا إلا على هذا الانتظار»[٥].

كان طه الذي امتلك ناصية البيان ينظر إلى علاقتهما نظرة فلسفية، تغدو فيها النفسان نفسًا واحدة، وصرَّح لها ذات مرة أنه معها ليس كما هو مع الآخرين، فكتب: «كان أفلاطون يفكر أننا إذ نتحاب، فإننا لا نفعل سوى أن نُعيد صنع ما أفسده عارض ما. عندما تنفصل نفسان عن بعضيهما، تبحث كلٌ منهما عن الأخرى، وعندما يوجدان ويتعارفان، فإنهما لا يعودان كائنين وإنما كائنًا واحدًا. إنني أؤمن بذلك تمامًا... أتعلمين أنني أصبح صوفيًا! لو كنتُ شاعرًا لألفت الأناشيد، ولغنَّيتها ونفسي تَرِقُّ وقلبي يلين، إنني لم أعد أتعرَّف على نفسي مطلَقًا.. فلدي شخصيَّتان:

---

(١) معك، ص٣٢.

(٢) نفسه، ص٨٧.

(٣) نفسه، ص٤٨.

(٤) نفسه، ص٥٠.

(٥) نفسه، ص٦٤.

واحدة للعالـم كله، وأخرى لـكِ، لي، لنـا، وفكرتكِ وحدهـا هي التي تجعلها تعيـش.. ولكن أترين يا سـوزان؟ أنا لا أتحـدث إلا عني، إنني أنانيٌّ.. وكل الصوفيون أنانيون»[١].

وبقي طه يكتب لها حتى سنيّه الأخيرة، فعندما لم تستطع السفر معه إلى جدة ورافقه أمين الخولي وسهر على راحته عوضًا عنها كانت المرة الأخيرة التي كتب لها طه فيها قائلاً: «تعالي إلى ذراعي وضَعي رأسك على كتفي ودعي قلبك يصغي إلى قلبي»[٢]. وكان عمره آنذاك خمسة وستون عامًا.

هذه الرسائل هي ما بقيت تؤنسُ سـوزان بعد رحيله، وكانت أحيانًا تذهب بها إلـى بيت ابنتها أمينـة، كما في قولها: «حملـت إلى ابنتي في المعادي رسائلك التي كنتُ أود أن أقرأها بهدوء»[٣].

وعند قراءتها كانت سوزان تستحضر الطريقة التي كانت تُكتَبُ بها تلك الرسائل، إذ كان طه يمليها على غيره إملاءً، فتتوجع قائلة: «عندما أقرأ رسائله متخيلةً الجهد الرهيب لإملائها تنهالُ دموعي»[٤].

وأبانت سوزان التي سبق وأن ذكرت أنها كتبت عن هذه الرسائل في الثمانين من عمرها، عن شعورها وهي تقرأ رسائله في هذه السن فتقول: «لم تكن من بين هذه الرسائل التسعين رسالة واحدة لم تكن اعترافًا أو عطاء. أقرؤها وأقرأ تلك التي وصلتني منه بعد ذلك. خمسون عامًا مضت

---

(١) معك، ص٥٢.

(٢) نفسه، ص١٦٥.

(٣) نفسه، ص٣٨.

(٤) نفسه، ص٤٩.

ولا أكاد أصدق ذلك إلا بصعوبة، أمِن الممكن يا طه، أنني كنت محبوبة على هذا النحو وأنني كنتُ المقصودة بهذا السيل من الحنان والعاطفة؟!... ليس عمري ثمانين عامًا. وعندما أغلقُ لفة الرسائل التي ربما تناولتها غدًا من جديد، أشعر أنني نشوى، خارج الزمن الحاضر، وخارج العالم. هذا القدر من الحب الذي كان عليَّ أن أحمله وحدي، عبئًا رائعًا، ما أكثر ما خفتُ ألا أتمكن من القيام بمتطلباته بجدارة»[1].

واشتكت من أنهما لم يملكا قط حياتهما الخاصة، فقد كان يملي رسائله إليها في غيابها وحوله أصدقاء متطفلون.

وكانت سوزان تعرف أن طه لم يكن هادئ الطبع دومًا، وأنه كان غضوبًا وكانت تعلم الأمداء التي يمكن أن يصل إليها عنف أقواله عندما يغضب، وفي كلمات عذبة رؤوم كتبت عنه: «كنتُ أعرف احتدام غضبه وعنف أقواله، وأحاول أن أخفف قليلاً من حدّتها؛ فيبدو مفعمًا بالإرادة الطيبة-فيجيب-: (سأطيعكِ، وسأكون نزيهًا في مقالاتي، ولن أسبب لك العذاب يا ملاكي، اطمئني، وما دمتِ إلى جانبي، فلن أغدو شريرًا، لكنني سأغدو مجادلاً عنيفًا في المساجلات)»[2].

وعن الوحدة المريعة التي كانت تتملكه في غيابها كتبت سوزان: «تجرأ أخيرًا أن يقول: (أنا قليل الإفضاء بمشاعري، بل إنني صموت، وإنني على وعي بذلك تمامًا، لكن ما أكثر ما حدثتك منذ رحيلك عن أشياء لا تطيقين سماعها! لم أكن أعتقد على الإطلاق بقدرتي على مثل هذا الحب. وستبقى دومًا في أعماق نفوسنا زاوية كانت وستبقى دومًا

---

(١) معك، ص٤٩.

(٢) نفسه، ص٥٤.

وحشية، ولن يمكن تقاسمها إلا بين كائنين، كائنين فقط، أو أنها لن تُقتسم على الإطلاق. هذه الزاوية الوحشية هي أفضل ما فينا)»[١].

وكان طه يمر بمتاعب يعزل نفسه على إثرها، وكانت سوزان تتألم لألمه ولا تخفي عنه إحساسها بآلامه والعزلة القاتمة التي كان يفرضها على نفسه، وعن إحدى الفترات السوداوية التي مرَّ بها الزوجان وحال بينهما ما سماه طه (بالشيطاني) وتحدثت عنه سوزان: «كان تعِسًا بسببي فقد وقع نتيجة الإرهاق والمرض والوضع الفاجع وتمسُّكه في عزل نفسه عن الناس فريسةً لإحدى النوبات السوداء المخيفة التي ما أكثر ما عرفتها! كان إذ ذاك يحبس نفسه وراء صمت شرس مخيف، كما لو أنه سقط في أعماق حفرة لا يستطيع أيُّ شيء على الإطلاق أن ينتزعه منها»[٢].

وكانت سوزان تتأثر بشدة بما يحدث له، كما في قولها: «كانت حياتي تبدو لي قد توقفت، وانسحقت بلا أمل في مواجهة عزلة مطلقة يفرضها على نفسه، ورفضه العنيد سماع أقل كلمة تحاول معونته. قلت له يومًا: لماذا تبعد نفسك عني؟! فكانت هذه الكلمة مثار الأزمة. كنت أنا الأخرى كئيبة؛ فقد كان يبدو ظالمًا قاسيًا. ولا شك أنني كنت أنا الأخرى مثله أيضًا»[٣].

وهنا يعود طه فيكتب لها: «أكان عليَّ أن أتألم في حبي لك أيضًا، إننا نؤلم بعضنا كثيرًا. ولم أتصور على الإطلاق أمرًا على هذه الدرجة من الشيطانية يسعه أن يتدخل فيما بيننا. فلنرحم أنفسنا. إن أقل شيء يمسُّني

---

(١) معك، ص٦٤.

(٢) نفسه، ص٩٧.

(٣) نفسه.

يزلزلك أنتِ، أنتِ معنى حياتـي، إذن ما الذي يحدث لنا؟! اطويني في جناحك كما كنت تفعلين دوّما فقد أبادتني رسالتك»[١].

ولم تكن سوزان وحدها من تشعر به وتتفهمه، فقد كان يبادلها نفس التفهم، كما في قوله لها عند هبوب الرياح: «الرياح تعوي؛ ما أشد انحراف مزاجي! كنـت تقول لي: (أنـتِ تتألميـن عندما تكون الرياح شـديدة). نعم»[٢].

وكما شاركته سوزان حياته الأسرية، شاركته حياته الثقافية، فكانت تُلقي كلماته في المؤتمرات، وتعينه في ترجمة ما يحتاج إليه من نصوص، آخرها كان ترجمة كتاب الأيام إلى الفرنسية، بل كانت تعتني حتى بالمكان الذي يجلس فيه، كحديثها عن الصنوبرة التي زرعتها من أجله، واهتمامها بالبيت حتى خيَّرها مازحًا ذات مرة بين إهدائها جوهرة تزين بها صدرها أو طقم أواني منزلية.

وكان هو بالمقابل وعلى فقدانه البصر وضعفه في آخر أيامهما معًا، يساعدها قدر استطاعته، تقول سوزان: «ما أكثر ما كان طه يمسُّ شغاف قلبي في تلك السنوات الأخيرة! فعندما كنا نتنزه على ضفة (الفليرس) أراد أن يحمل محفظتي بأي شكل مثلما كان يفعل في السابق لمساعدتي، بما أنني لم أكن أملك سوى ذراع حرَّة واحدة، إلا أنه عندما كان يتوجب على ذراعي اليسرى أن تسند ذراعه اليمنى أيضًا، لم يكن ممكنًا أن يحملها فضلاً عن أن ذلك كان يسبب له إرهاقًا كبيرًا»[٣].

---

(١) معك، ص٩٨.

(٢) نفسه، ص٣٩.

(٣) نفسه، ص١٧٤.

وكان يحرص على تهيئة البيت مع الخدم لاستقبالها بعد عودتها والأولاد من السفر، وكانت سوزان تشكر له هذا الفعل وتراه تعبيرًا لطيفًا عن عفوية الحب، مستحضرةً عبارة ميشيليه: «الحب العفوي أرفع تعبير عن الحنان الإنساني»[1].

كانت سوزان لا تتحدث عن إنجازات طه وتقف، بل تتحدث عن أحزانه أيضًا، عن فقده الأصحاب واحدًا تلو الآخر، وما كان يثيره الفقد في قلب طه من آلام، وعن المكانة المتدَنِية التي كان يحتلها طه في أسرته بوصفه أعمى، وأخذ يكرر التحدث عنها آخر حياته، ثم لا يلبث أن يصمت ولا يكمل حديثه، كقوله: «كنت أقل الجميع اعتبارًا بنظر أسرتي»[2].

كانت سوزان وهي تكتب وتنقل لنا رسائل طه وتتحدث عن آلامه، لا تخفي العبء الجارح الذي تفرضه عليها هذه المهمة، فتقول: «هل أستطيع أن أمنع نفسي من البكاء وأنا أنقل هذه الكلمات؟ لقد كان هذا القلب يستحق كل سعادة الأرض لو أن السعادة كانت توهب لمن يستحقها!».[3]

وتحدثت سوزان مرة بعد أخرى عن تباعد الناس عن طه قبل موته، وكيف أعدَّت له مكانًا بجانب غرفته، ليجتمع مع أصدقائه الخُلَّص الذين ثبتوا على الود ولم ينقطعوا عن زيارته.

وعن اهتماماتهما المشتركة، بما فيها تسليتهما، ذكرت سوزان كيف حاولت الترويح عن طه فعرفته بالسينما الناطقة، وكيف كانا يقرآن معًا،

---

(١) معك، ص٦٩.

(٢) نفسه، ص٢٢٦.

(٣) نفسه، ص٩٨.

ويتشاركان الاستماع إلى الموسيقى، وتغريد الكروان في حدائقهما المختلفة، إذ «كان هناك أيضًا تغريد الكروان الذي كان يؤثر في طه كثيرًا»[١]. ويسميه صديقه، وكيف كان يستمع إلى تغريده وهو يكتب رسائله إليها.

وعن الأماكن التي جمعتهما وما تثيره زيارة تلك الأماكن من شجون، تحدثت سوزان طويلاً، وفي مواضع متفرقة، من كتابها، وكانت سوزان مثلها مثل جوان ديديون، تفكر عندما تمر بتلك الأماكن التي زاراها معًا فيما لو علم به طه لأسعده، إذ قالت: «أثار انتباهي أمر لم أكن لأتوقعه، ففي نهاية طريقنا تقريبًا، وفي قلب منطقة مقابر البساتين أثارتنا ضجة فرحة وصاخبة. كانت تلك ضجة وصخب التلاميذ الذين كانوا يمرحون في استراحة ما بين الدروس؛ فقد أقيمت هناك مدرسة حديثة، ودمعت عيناي، لكنني ابتسمت على وجه التأكيد؛ فلا بد أن ذلك كان سيجعل طه مسرورًا»[٢].

هذه الرابطة الوثيقة بين قلبيهما هي ما كانت تسميه سوزان الحبل السري، فتقول: «بعد رحيله، بتُّ أشعر أني منتزعة نهائيًا، لا من كل ما يخصني وإنما من كل ما يخصُّنا. أين ذلك الحبل السري الذي ربطنا إلى بعضنا باستمرار سواء أكنا معًا أو كنا مفترقين؟»[٣].

وقد عذّبت سوزان لحظاتهما الأخيرة معًا وصوته وهو يناديها أن تعود أثناء مرضه (عودي، عودي). أما ما بقيت سوزان متعجبة منه عند تذكرها للحظة موته، هو الهدوء العجيب الذي تملكها تلك اللحظة،

---

(١) معك، ص١٠٢.

(٢) نفسه، ص١١٥.

(٣) نفسه، ص٤١.

وكما هي حال أخريات لم تتمكن سوزان من البكاء لحظة الفقد؛ إذ قالت: «لم أكن أبكي، جاءت الدموع بعد ذلك»[1]، وعلى مدى صفحات الكتاب تدفقت كلماتها بوجع الفقد كقولها: «يقلقني عجزي عن إعادتك لقربي، أعرف أنك تحيا، ولكن، أين؟ كيف؟»[2]، وتحدثت بمرارة كيف عاشت بعد فقده، كتمثال متحرك!

وعندما مرَّ وقت على رحيله، ويفترض أن تكون قد تحررت بعده من أحزان الفقد، كانت تحاول الظهور بمظهر الهادئة، وتقول: «إذا بكيت فإنما أبكي غيابك الذي لا دواء له، وربما كنت أبكي حياتي التي بت لا أتعرف عليها»[3].

وكعادة الذكرى حين تهجم علينا دون استدعاء أحيانًا، وصفت سوزان شعورها عند سماع صوت طه في المقابلات بعد موته، وما تثيره الصور في نفسها، ورغم أنها قالت إنها لا تحتاج الصور لاستعادته، فقد ذكرت أنها تحب صوَرَ سنواته الأخيرة، إذ قليلاً ما كان يبدو عليه الضيق فيها، وتكره تلك التي كان يظهر طه فيها وهو يُحمَل من السيارة، ووَدَّت لو تمزقها.

وبعد أن كانت سوزان يَدَهُ التي يتوكأ عليها: قالت: «نحن في عام ١٩٧٥ وقد أصبحت اليد التي كانت دليل طه فارغة»[4]. وبقي يتردد داخلها ذلك التساؤل الذي يحركه الحنين إليه: «لماذا لا تكلمني يا حبيبي؟! منذ صباح الأمس وأنا أناديك بيأس»[5].

---

(١) معك، ص٢٩.

(٢) نفسه، ص٢٧.

(٣) نفسه، ص٢٢٧.

(٤) نفسه، ص٣٧.

(٥) نفسه، ص١٨٠.

وعن استدعاء الذكريات ولماذا نحتاجها، كتبت سوزان كلمات تذكرنا بكلمات جوان ديديون عندما تتساءل: لماذا نحاول أن نبقي موتانا أحياء؟ فتقول سوزان: «إننا نتكئ على الذكريات؛ إذ لما كنَّا نستشعر حاجةً عميقة لئلا يموت أولئك الذين أحببناهم، فإننا نبعثهم عبرها ثانيةً، ولكيلا يتخلوا عنا، فإننا نجعلهم يشاركوننا حياتنا المستمرة. وإنه لوهمٌ آخر أيضًا! فالحياة تتغير كل لحظة، كما أنهم يبقون غرباء عنها...وإنه لمن العبث، بل لمن الغرارة، إن لم أذكر العمر الذي بلغته، أني لا أحب الثياب التي لم تكن الثياب التي كنتُ ألبسها إذا كان حيًا»[1].

لهذا كانت سوزان تحترم الذكرى وتستدعيها باستمرار وهي تعود إلى الأماكن التي كانا فيها معًا، كما في قولها: «أستطيع أن أضع في عداد الأفراح النادرة، تلك الأفراح التي منحتها له الطبيعة؛ فعلى امتداد ذكرياتي، هناك غابات ومروج وبحيرات وجبال وسهول وبحار، كانت بعض المناظر عزيزة علينا وأليفة إلى أنظارنا بحيث كانت تبدو وكأنها ملكنا في لحظات الغبطة، فنقف ونطيل الوقوف أمامها، كنا نلقاها بفرح كما لو كنا سنلقى أصدقاء أعزاء، وهذا هو السبب في أنني أحاول أن أستمر في الذكرى ماضيةً إلى لقاء بعض هذه الأماكن التي كان فيها سعيدًا»[2].

ورغم أنها قضت التاريخ الذي تحتفظ له بمكانة خاصة مع ابنها مؤنس وأسرته، فقد شقَّ عليها أن تعيش أول تاسع من أغسطس بدون طه، وهنا تفصح سوزان عن خوف تملَّكها: «للمرة الأولى منذ سنوات، ركبتُ القطار، وعندما اختفى وجه مؤنس العزيز في محطة مونترو شعرتُ ببعض الذعر (كنت وحيدة، غير شابة، وغير سعيدة).. ما أكثر السنوات

(١) معك، ص٢٣٥.

(٢) نفسه، ص٢١٤.

والمرات التي مررنا بها هنا! وما أكثر الأفراح التي عشناها! وما أجمل ما كانت عليه غبطة الأطفال!»[1].

وهنا ومثل جوان تفكر سوزان بأولئك اللاتي عشنَ فاجعة فقد الزوج والحبيب، فتقول: «أفكر -وما أكثر ما أفكر- في النساء اللواتي غدون وحيدات وهنَّ ما زلن في ريعان الصبا، أفكر في كل مالم يعرفه الرفيقُ الراحل الذي سيتسع دون توقف...آه! أعرف جيدًا أن أولئك الذين تحابوا يتواصلون على نحوٍ آخر، لكن الأمر مؤلمٌ بعد كل حساب»[2].

وعن فقدان المعنى بعد موت طه وأدائها لرسالتها تجاه أسرتها، تقول: «عندما يكون أطفالنا يحتاجون إلى الرعاية والتربية، أو مهنة. أو مهمة تتطلب المتابعة وقوىً جسدية للقيام بها؛ فإن بوسعنا -ولا شك- بل إننا نعرف كيف نتدبر أمرنا حتى بعد وصول هذه المهمات إلى غاياتها، لكن ها أنا ذا في الثمانين من عمري والمهمة التي واصلت القيام بها خلال ستة وخمسين عامًا قد غدت بلا موضوع»[3].

وعن ذراعها التي اعتادت صحبة طه، قالت بعد رحيله: «ذراعي لن تمسك بذراعك أبدًا؛ ويداي تبدوان بلا فائدة بشكل محزن، فأغرق في اليأس. أريد عبر عينيَّ المخضَّلتين بالدموع حيث يقاس مدى الحب، وأمام الهاوية المظلمة حيث يتأرجح كل شيء؛ أريدُ، أريدُ أن أرى تحت جفنيك اللذين بقيا مغلقين ابتسامتك المتحفظة، ابتسامتك المبهمة الباسلة، أريد أن أرى من جديد ابتسامتك الرائعة»[4].

---

(١) معك، ص١٨٨.

(٢) نفسه، ص٢٢٥.

(٣) نفسه، ص٣٩.

(٤) نفسه، ص٢٣٣.

وعن الارتباط بالمكان وعلى عكس جوان التي كانت تتحاشى تناول الطعام في الغرفة التي سقط فيها زوجها جون سقطته الأخيرة، كانت سوزان تتناول طعامها في المكان نفسه الذي لفظ فيه طه أنفاسه الأخيرة، فتقول: «إلى هذه الغرفة، غرفتكَ، أحمل صينية غدائي. أوَلم نكن نتناول على هذا النحو وجباتنا طيلة ثلاثة أعوام؟... تبدو هذه الغرفة وكأنها تملك شيئًا ما... ففيها تمَّ أكبر سرٍّ، سرُّ الموت، أمِنَ الممكن أنه لم يبقَ من هذا السر شيء؟ كل شيء يزعزعني، كل شيء يختلط، يتشابه... ينتزعني من الحاضر؛ أأنا ضعيفة إذن؟ أأنا عاجزة عن مواجهة الفراغ والأيام الخوالي؟... كنتَ صلابتي، كنتَ تحميني، وها أنا ذي بلا دفاع!»[1].

كانت علاقة سوزان بطه من العلاقات التي ظهرت فيها غيرية المرأة بشكل كبير، وظهرت معها ما يسمى في الفلسفة النسوية بأخلاق الرعاية، مع ملاحظة موقف سوزان المختلف عن الثنائيات النسوية، فلم تتلوث علاقة سوزان بطه بتلك الثنائية الضدية بحسب ما ظهر لي أثناء القراءة.

وقد استطاعت سوزان أن توقف القارئ على الرابطة الروحية الباقية بين الزوجين بعد الفقد، على الحاجة المستمرة للوقوف على الأطلال، والاقتيات على الذكريات، وعلى الزمن الذي يختفي عندما يحضر الحب كما في مشاعرها عند قراءة رسائل طه بعد كل تلك السنوات، وتلاشي الزمن لحظتها.

مع ملاحظة ظهور الروح الديني في كتابها منذ صفحاته الأولى، وعلى امتداد الكتاب، وتمثَّل هذا في اقتباساتها من الكتاب المقدس، فقد كانت سوزان تستند إلى قاعدة دينية، تمثلت في خلفيتها المعرفية

---

(١) معك، ص٢٣٦.

وعلاقاتها الممتدة مع القساوسة ورجال الدين المسيحيين، وقد ظهرت هذه القاعدة بوضوح في ثنايا الكتاب. مع تمسكها بما سمته بالتسامح الإسلامي وسخريتها من وصف المسلمين بالمتعصبين، وقد أثر الروح الديني في المهمة التي نذرت لها سوزان حياتها واستصحبتها حتى اللحظة التي شرعت فيها بتدوين أيامها مع طه، كما أثّر في نظرتها للفقد فلم يكن يأسها متطرفًا، كما حزنها.

فلسفة النفس الواحدة
عائشة عبد الرحمن وأمين الخولي

طيفك الماثل يحدو خطوتي

نحو مثوى لك، دان، وبعيد

هاتفًا أن أحتمي في وحشتي

بيقين الملتقى، خلف السدود

لحظة تأتي فتنهي محنتي

بالتئام الشمل في دار الخلود

بنت الشاطئ

سطّرت عائشة عبد الرحمن -بنت الشاطيء- سيرة ذاتية بعنوان (على الجسر: بين الحياة والموت) تبدو لأول وهلة طوافًا متصلاً حول زوجها الدكتور أمين الخولـي، وكأنَّ حياتها على اتساعها وتنوعها تمحورت حوله فقط؛ إذ كل المسـارات قادتها إليه في دنيا الناس، وظلّت تقودها إليه في معراج الأرواح.

تأملتُ هذا المعنى فألفيته في كل ما كتبته المؤلفة شكلاً ومعنى، ألفيته في بُنية الكتاب، وتقسيم الفصول، وتأويلاتها لأحداث حياتها، فقد رتبت عناوينها وفق تسلسل سـردي ينتهي بالزوجين معًا: (قبل أن نلتقي، في الطريق إليه، في منطقة الضباب، ظلال وأضـواء، موعدي معه، اللقاء، معًا على دربنا الواحد، ثم مضى وبقيت، دنيانا بعده).

وفي العناوين التي صاغتها عائشـة وتأويلها لأحـداث حياتها تظهر

نزعتها الصوفية، في أسلوب عرفاني يتجلى معه مغزى أحداث قصتها تدريجيًا لتكتمل بلقاء الروحين في النفس الواحدة، قصة يغيبُ فيها أيُّ حديث عن الطابع الحسّي للجمال، فلا جمال عدا جمال الروح، والروحي فقط هو ما هيمن على كتابتها من أولها إلى آخرها.

وتصف عائشة هذا بقولها: «كيف سارت بي الحياة قبل أن ألقاه؟ في ذاك الفصل من قصتي، أعود إلى طفولتي الباكرة، فأسترجع من ذكرياتها مالم تطوه الأيام والليالي في متاهة النسيان، وقد تبدو تلك الذكريات بعيدة عن سياق الفصول التالية من قصتنا، غير أني أريد لألتقي بتلك الصبية التي حملت ملامحي الأولى، وأميّز في آثار خطاها، تلك المرحلة التي أسلَمَتها إلى دربه من حيث لا تدري!»[1].

استهلت عائشة سيرتها بالمشهد الأخير، مشهد وداعه، وتماهت عندها البداية والنهاية، فكانت البداية ختمًا للحياة والقلب من بعده، فلم تتعرض لفكرة استئناف الحياة من بعده بالمعنى الذي يجعل الموت نهاية أخيرة للعلاقة. بل جعلت الموت طريقًا للقاء آخر، أو لحياة مستأنفة، وسأتحدث عن هذا عند تناول الفقد وسؤال المعنى في موضع آخر.

واللافت في السطور التي تناولت علاقتها بنهر النيل، وشاطئه الذي شهد خطواتها الأولى في دروب الحياة، وتخلقت معها ملذّاتها الأولى، ومخاوفها الأولى، وتأملاتها الأولى على تراب ذلك الشاطئ، وفي هذه السطور يستشف القارئ أيضًا كيف بدأت علاقتها الأولى بفكرة الموت؛ فقد أحبَّت عائشة النيل وكتبت عن انجذابها الدائم إليه رغم تحذيرات أمها وحكاياتها المخيفة عن جنيات النهر، وبكاء الأم أثناء تخويف

---

(١) على الجسر، ص١٤.

طفلتها حتى لا تعود اليه، وتحريك موقف الأم تساؤلات الطفلة حول البواعث الحقيقية لإبعادها عن نهرها الحبيب، لتكتشف أخيرًا من مربيتها سبب خوف أمها من النهر ودموعها التي تنهمر كلما خوّفتها من الذهاب إلى الشاطئ، فقد نزلت والدة أمها إلى النهر ذات صباح ولم تعُد قط![1]

ومن تلك اللحظة، لحظة الإفصاح عن الحقيقة، أصبح لعلاقة الطفلة بالشاطئ بُعدًا آخر بدا فيه الموت قريبًا، وغدا معه ماء النهر مؤنسًا، كما في قولها: «ومن عجبٍ أن علمي بهذه المأساة وما أعقبها من ذيول فاجعة، لم يقهر حبي للنهر! بل لعله شدني إليه بوثاق لم يكن في طاقتي أن أتحرر منه! وما لبثتُ أن عدت إلى مكاني الذي هجرته حينًا، أحاول أن أتمثل منه المأساة التي لم أكن من شهودها، وخيّل لي، أنني أستطيع أن أصغي في هدير الموج إلى صدى بعيد لصوت إنْسِيٍّ يتصاعد من قاع النهر، وأن أميّز في مياهه تلك الدموع التي ذرفَتها أمي حين وقفت في الأمس البعيد على الشط تنادي والدتها الغريقة، وتضرعُ إلى النهر أن يردها لها، فيرتدُّ إليها صدى ندائها وضراعتها، مجهَدًا ممزقًا ضائعًا.. وأدركتُ على صِغَر سني، سرَّ الخوف الذي كان يجتاح وجدان أمي كلما أحسَّت حبي للنهر وتعلقي به. وأدركتُ كذلك سبب ارتباطها العجيب بجديها، وقد عاشا بعد المأساة يجترّان ذكرياتها المشحونة بالأسى باللوعة، ويطلان صباح مساء على مسرحها الأليم!...على ذلك الأفق الشجِي الحزين، تفتح إدراكي وأنا أخطو إلى عامي الخامس.. ومن تلك الكأس المترعة بالشجن المرّ والحنان الدافق والعاطفة المرهفة، عرفتُ مذاق الحياة أوَّل ما وعيت»[2]

---

(١) على الجسر، ص١٩.

(٢) نفسه، ص٢٠-٢١.

ومنذ ذلك الحين ارتبطت عائشة بعلاقة مع خيالات الراحلين، الذين لم يعودوا راحلين على الحقيقة، فتقول: «ومن تلك الشخوص الحية التي تقف بالأطلال، بدأت ألتقط خيوطًا خفية من ذيول المأساة، ثم أتسلل إلى النهر كلما وجدت سبيلاً إلى الإفلات من الرقابة المفروضة علي، فأمضي الساعات الطوال صامتة على الشط، أُنَسِّقُ ما جمعت من خيوط، وأحاول أن أنسج منها ما غاب عني من مشاهد، في تأملٍ مستغرقٍ وشجوٍ مريح»[1].

وبعد أن أسهَبت في سرد نضالها الطويل للدراسة في المدارس النظامية، رغم رفض والدها لذلك، وحرصه على تلقيها للعلوم الإسلامية بالطريقة المشيخية، وخوفه عليها من إغواء المدينة إن هي انتقلت إليها للدراسة أو التدريس، وتغلبها على كل ما اعترضها من صعوبات، أكدت عائشة أنها لم تكن لتُعرِّض علاقتها بوالدها لخطر التصادم بين رغباته وطموحاتها: «كنت أوثر أن أموت ولا أعصي له أمرًا في السر أو العلن»[2].

وتابعت بعد ذلك الحديث عن دخولها الجامعة وكيف جمعت أمرها وقررت التقدم للتسجيل، ولمَّا كان القبول يعتمد على رأي الأساتذة فقد قرَّرَت حضور دروسهم وإثبات نفسها، وكانت تنوي التغاضي عن حضور دروسهم في العلوم الاسلامية والعربية لمعرفتها بها، معرفةً تجاوزت بها معرفة أقرانها من طلاب الجامعة، فتحداها زملاؤها أن تُفَوِّتَ درسًا من دروس الدكتور أمين الخولي خلال الأربع سنوات الجامعية، فكانت عائشة ترثي لضعفهم، وتقابل تحديهم بنوع من الاستخفاف.

---

(١) على الجسر، ص٢١.

(٢) نفسه، ص٨٥.

وبعد قبولها في الجامعة ظلَّ تحدي زملائها ماثلاً أمامها، لكنها لم تدرس على الخولي في السنة الأولى، وكانت تلمحه من بعيد، فتخال أنها تعرفه من قبل.

وفي ذلك الوقت كانت قد قطعت عامًا من رحلة الكتابة في صحيفة الأهرام الشهيرة، فعادت عائشة للجامعة عام ١٩٣٦ وهي ممتلئة بزهوّها على زملائها ببزوغ نجمها بينهم وفوز كتابها (الريف المصري) المنشور في سنتها الجامعية الثانية. وبدلاً من أن تقع في إغواء المدينة كما خشي والدها، قاومت عائشة استلاب ذاتها في المدينة، فتذكرت ما عانته مع صاحبة إحدى المجلات القاهرية، وصمَّمَت ألا يتكرر لها ما حدث معها بحال: «تذكرتُ الحاجَّة التي كنت أكتب لها افتتاحية مجلتها وقد طوتني في ظلّها وهي تبارك مواهبي، فشاخ قلمي الغض، واكتهلت عقليتي الصبية لطول ما تقمصت فكريًا شخصية سيّدة في سن جدتي... لقد تعلمتُ درسي الأول من الحاجَّة بعد أن تحررتُ منها واستردیت ذاتي بدخول الجامعة والكتابة في الأهرام، ولم أسمح بعدها لبيئة العاصمة، ولو كانت الجامعة، أن تطويني في ظلّها وتذيب عقليتي في بوتقتها لتسلبني ذاتي مرة أخرى»[1].

بهذه الروح وذلك الزهو وتلك الهالة التي كانت تميّزها عمن حولها في الجامعة، أخذت عائشة تستعد للقاء الخولي، وكان لقاؤه آخر ما جعلها تبقى فيها، بعدما ساءها إقحام الجامعة في مواقف سياسية حزبية.

وقبل اللقاء الأول به، لمحَت عائشة الخولي يحدث مجموعة من الطلاب واقتربت منه، وسمعت نبرة صوته، وفكَّرَت متسائلة أين؟ ومتى سمعت هذا الصوت؟

---

(١) على الجسر، ص١٢٠.

وبعد أن كانت تلمحه من بعيد دون أن تسمع منه، سمعت كلامه آنذاك، وأعجبت به، وبينا هي كذلك سمعته يخبر الطلاب أن الدرس الأول سيكون في السادس من نوفمبر، فأذهلها ما سمعت، فقد كان السادس من نوفمبر يوم مولدها!

ولأنها لا تؤمن بالمصادفات، وأن كل ما هنالك من أحداث لا يخرج عن تقدير الله وحكمته، فقد غيَّر ما سمعت تأويلها لما قد يبدو لغيرها مجرد مصادفة، وقالت: «كأنني أدركت أنني ما قطعتُ ذلك الشوط الطويل على دربي إلا لكي ألقاه في يوم مولدي... أقفُ عند نهاية المطاف أستجدي الزمن رجعةً إلى الأمس السعيد الذي ولَّى وراح، وأتسولُ في غفلة حالمة تحملني إلى حيث أفضى بي المسعى إلى دربه في يوم ميلادٍ لي جديد»[1].

لقد بدد لقاؤها به كل ذلك الزهو التي كانت تحتمي به من فقدان ذاتها، وبعد أن حضرت درسها الأول معه، أدركت حاجتها الشديدة للتعلم منه؛ إذ ذكرت كيف علَّمها الخولي، كيف تقرأ وتتعلَّم، لكن الرابطة التي امتدت بينهما لم تكن عقلية محضة؛ «ومن ساعتها ارتبطتُ به نفسيًا وعقليًا»[2].

وهذه العاطفة المتصلة بمحبتها الأولى للعلم هي ما جعلها تُلقي بكل دفاعاتها السابقة خلف ظهرها، وتُقبل على الخولي وقد فتحت عقلها وروحها لتلقي العلم عنه، حتى أصبحت تشعر أن عالمها أخذ يتسع ويغدو أرحب وأرحب كلما جلست إليه، حتى لتضيق الدنيا عن أن تسعه.

---

(١) على الجسر، ص١٢٣، ١٢٨.

(٢) نفسه، ص١٢٩.

هكذا تسلسل سرد المؤلفة لسيرتها المتمحورة حول زوجها، لكن مهلاً.. فلم يكن تمحورها حوله من منطلق الانفصال بينهما بل من منطلق الوحدة، ولذا، عادت لتحدثنا عن إجابتها عن السؤال الذي طرَق ذهنها بإلحاح أول ما رأت الخولي وسمعت منه: «عرفتُ أين عرفته؟ إنه اللقاء الذي تقرَّرَ في ضمير الغيب منذ أن خلقنا الله من نفس واحدة وخلق منها زوجها»[1].

ولأنها لا تؤمن بالصدفة، فقد تمسكت حتى كتابتها لهذه السيرة بأنها لم تكن لتخطئ الطريق إليه، فمن منظور النفس الواحدة، من هذه الحقيقة القرآنية الثابتة انطلقت عائشة وانتهت، وها هي ذي تقول: «ومضى العمر كله، وما كففت عن التساؤل أكان يمكن أن أضل طريقي إليه فأعبر رحلة الحياة دون أن ألقاه؟ وحتى آخر العمر لم يتخلَّ عني إيماني بأني ما سرت على دربي خطوة إلا لكي ألقاه.. وما كان يمكن أن أحيد عن الطريق إليه وقد عرفته في عالم المثُل ومجالي الرؤى وفلك الأرواح.. من قبل أن أبدأ رحلة الحياة»[2].

وفي ضوء هذه الحقيقة أخذت تُفسّر أحداث حياتهما معًا، انسجامًا وتنافرًا، في ساعة الصفو وساعة الكدر، فتقول: «وكنا أحيانًا نتخاصم! وربما مرّت علينا فترات مغاضبة يحسبها أهلونا وأصدقاؤنا من لهفة الحب، ودلال العاشقين، ويلمح فيها أرهفهم حسًّا وهج الضرام المتوهج في أعماقنا يتلمس متنفسًا! دون أن يتصور أحدهم أن المخاصمة أو المغاضبة ليست إلا صراعًا حتميًا بين جوهرنا الواحد، وبين الثنائية المزدوجة التي يفرضها علينا واقع الحياة وقانون المادة وأوضاع الدنيا!»[3].

---

(١) على الجسر، ص١٣٩.

(٢) نفسه، ص١٤١.

(٣) نفسه، ص١٤١.

وبفلسفة النفس الواحدة فسرت الفقد وحدثتنا عن لحظته الأقسى: «وشهدته بعيني مسجًى على فراشه، ليس بين حياتنا الدافئة الخصبة الفتية السخية وبين هذا الموت الهامد إلا نبضة من قلبه الكبير.. لم تستغرق جزءًا من ثانية، وخفقة من نفَسٍ واحد لا يكفي لإطفاء عود ثقاب.. وعلى عيني اقتحم ناس غرباء مخدعه ليجهزوا جسده للرحلة الأخيرة.

وعلى عيني حملوه من دارنا إلى غير عودة، ومضوا به إلى قريته في ريف المنوفية، فدفنوه في ترابها الذي منه جاء، وإليه المآب»[1].

وتحت عنوان (ثم مضى.. وبقيت!) تماهت النهاية بالبداية كما تماهت البداية بالنهاية، وجاشت أحاسيس عائشة لتفضي بأمنيات اللقاء بعد الفراق، فتقول: «هل من سبيل إلى أن أستبقي تلك الرؤيا الباهرة لمسعاي إليه ولقائي به، لتؤنس وحشة الفراق إلى أن يحين الأجل فألحق به ويلتئم الشمل مرة أخرى في عالم الروح.. أسفًا! كل ما مضى انتقل إلى منطقة الأحلام فلا سبيل إلى استرجاعه إلا في غفوة مختلسة، لا تلبث أن تتبدد بيقظة مروعة تسلمني إلى قبضة الواقع حيث المشهد الفاجع من قصتنا التي كانت أسطورة الزمان.. لقد مضى وبقيت.. ورأيته بكل جلاله وشموخه وكبريائه وفتوته يرحل عن الدنيا حين لم يعد له على أرضنا مكان..»[2].

لقد تمكنت عائشة من تصوير مشاعر الفقد بأقوى ما ملكت من بيان، وقد وهبت قلمًا جرَت معه كلماتها كنهر تتدافع تياراته بقوة لا تدع لقارئ أن يكبح معها جماح شعوره، رغم ما أشبعته من تأملات في المبدأ

---

(١) على الجسر، ص١٤٥.

(٢) نفسه، ص١٤٦

والمصير، لكن بناء عائشة لفكرة النفس الواحدة المستلهمة من القرآن، تتقاطع- فيما بدا لي- مع نظرية المثل عند أفلاطون، ورغم أن عائشة نفت ذلك نفيًا قاطعًا، ورغم أن فلسفتها لمفهوم النفس الواحدة القرآني لا تتطابق مع نظرية المثل، فيظل بينهما خيطًا جامعًا، ففي نظرية المثل تظل النفس تبحث عن مثالها في عالم المثل حتى تلقاه، وهكذا صورت عائشة قصة التقائها بالخولي ضمن سردية شعرية لنفسٍ تجد نفسَها الأخرى فتتوحدان في نفس واحدة، وهذا الاجتماع والتوحد يتم في (مجال المثل ومجالي الأرواح) كما نصَّت فيما نقلنا عنها من اقتباسات.

ولا يبعد أن عائشة استعارت الفكرة (الكيان الواحد الذي يضم كيانين) من كلمات طه السابقة لسوزان، خاصة وأن الترجمة العربية الأولى لكتاب سوزان، صدرت عام ١٩٧٩م، في حين صدر كتاب عائشة عام ١٩٨٦م، ولا يخفى ما قد يحدثه السابق من أثرٍ في اللاحق، على أن طه لم يفجر الفكرة بمثل ما فعلت عائشة، ثم إن طه كتبها خارج إطار الفقد الدائم (الموت) أي في سياق الفقد المؤقت (السفر) بخلاف عائشة، التي نقلت الفكرة من مجال الفلسفة إلى مفهوم النفس الواحدة في القرآن وجذرتها في مفهوم ائتلاف الأرواح واختلافها في السنة النبوية، ورؤتها بمشاعر الوجد والفقد، فجاءت على نسقٍ فريد ومتماسك فسَّرت فيه عائشة ما كان بين الزوجين قبل اللقاء وبعده، وقبل الموت وبعده، بل حتى ما كان يقع بينهما في لحظات الصفاء أو الخصام. ورغم هذا فلم تتعدَّ عائشة في تشريحها للفقد أوجاع الغياب، وإكراهات البقاء، وأمنيات اللقاء..

وليس هذا بمستغرب فغاية الكتاب لم تكن تشريح الفقد بل تدوين سيرة ذاتية لحياة المؤلفة التي كان الفقد أحد فصولها.

سؤال المعنى في حضرة الفقد
بين جوان ديديون وعائشة عبد الرحمن

ما من عين تراقب العصفور ...!

جوان ديديون

تُحَرِّكنـا وتؤطر كل رؤانا التفصيليـة رؤية كُلِيَّة تـدور حول المعنى، معنى وجودنا في هذا الحياة، ومغزى الوجـود، وموجوداته، ومن هذه الرؤية نُفَسّـر ما نواجهه فـي دروب الحيـاة، فَقْدًا كان أم غيـره. وحينما يفجعنا الموت فجأة ودون سابق ترقب، يتزعزع داخلنا كل شيء ويتناثر، لتبقى الرؤية الكُلِيَّة وحدها معرّاة من كل ادعاء.

فصدمة الموت تكشـف قناعَاتنا الكاذبة، وأوهامنا عن أنفسنا، وإذا بنا نقف أمامها بخشوع وتواضع من أدرك الفارق بين الحقيقة والوهم.

وفي الصفحات الآتية سأتناول سـؤال المعنى في حضرة الفقد من زاوية نظر امرأتين مختلفتين رغم كل المشتركات بينهما، لعل في حديثهما ما يوضح إلى أين يقود هذا السؤال (سؤال المعنى) من فقدَ عزيزًا؟ كيف يَنظُر للموت، ويُفسّره؟ كيف تبدو له الحياة بعد فقيده؟ وكيف يواصل العيش بدونه؟ وإلى أين ينتهي به هذا الفقد؟

عن جوان ديديون وعائشة عبد الرحمن أكتب، وسأكتفي باستعراض وتحليل ما كتبته كل واحدة منهما عن الفقد من هذه الزاوية، وأبدأ بجوان التي كتبت بصراحة فائقة عن الفقد من ناحية الفجوة بين ما كنا نعرفه عن

الموت وما نشعر به لحظة وقوعه وما يلي تلك اللحظة، كما في قولها: «نتوقع أو نعلم أن شخصًا ما من أعزائنا قد يموت، لكننا لا نفكر في الأيام والأسابيع التي تعقب هذا الموت المتوقع... ربما نتوقع أن نتعرض إلى صدمة تُخل بتوازننا إذا ما حدث هذا الموت فجأة. لكننا لا نتوقع أن تكون هذه الصدمة مدمرة ومخلخلة للعقل والجسد في آن معًا»[1].

أما المرحلة الأشد صعوبة فتعقب الأيام الأولى من الفاجعة، فمرحلة ما بعد مواراة الفقيد القبر هي المرحلة التي يزول فيها الألم المُخَدَّر بمعونة من كانوا يشملوننا برعايتهم زمن العزاء، فنحن لا ندرك معنى الفقد وجسامة الحدث، إلا عندما نحياه بعدما يتفرق المعزون من حولنا، وهنا تفسر جوان ديديون ذلك الألم الذي لا يُدرك إلا ويتجرّع معه فقدان المعنى فـ «هنا يكمن جوهر الفرق بين ألم الفقدان كما نتخيله وألم الفقدان كما هو في الواقع، ذلك الشعور اللامتناهي بالغياب الذي يأتي بعد ذلك.. ذلك الشعور بالخواء بأننا نقيض المعنى بكل تمامه، تلك الاستمرارية عديمة الرحمة للحظات التي نعيشها من خلال اللامعنى بكل قسوته»[2].

ولأننا نستمد إجاباتنا من رؤية كامنة للوجود، فلا نزيد عن أن نستمد مما كنا قد اختزناه في وعينا من معنى، وهنا تذكر جوان أنها عانت من فقدان المعنى منذ طفولتها، ولم تجده في الأماكن التي تمنحه لها باعتبارها مسيحية، لكنها وجدته في علم طبقات الأرض (الجيولوجيا)، فتقول: «وأنا طفلة فكرت كثيرًا في اللامعنى الذي بدا لي في ذلك الوقت الصفة

(١) عام التفكير السحري، ص١٣٧.

(٢) نفسه، ص١٧٤.

السلبية الأبرز في الأفق. بعد عدة سنوات من الفشل في العثور على المعنى في أكثر المواقع التي يُنصح بالذهاب إليها للعثور عليه، علمت أن بإمكاني الحصول عليه في علم طبقات الأرض، ومكنني هذا بدوره من العثور عليه في الدعاء الكنسي»[1].

ومع ذلك فالمعنى الذي وجدته كان من الهشاشة بحيث انتهت تأملاتها في علم طبقات الأرض إلى اللامبالاة، أي بنفي العناية الإلهية عن هذا الكون، كما في قولها: «ما من عين كانت تراقب العصفور. ما من عين كانت تراقبني. كما كان في البداية، وكما هو الآن، وكما سيكون دائمًا»[2].

وحينما لم تستطع جوان العيش دون معنى تُضفيه على حياتها، فقد بحثت عنه في كل تفصيل من تفاصيل الحياة، فذكرت كيف كانت تفتش عن المعنى وتضفيه على حياتها العائلية بعد الزواج من خلال طقوس الاهتمام والرعاية التي كانت تقدمها لعائلتها، تلك التفاصيل البسيطة التي سعَت من خلالها لإسباغ المعنى على الأشياء وسمَّتها بالفتات، مستلهمةً تسميتها من كلمات إيليوت، وحول هذا كتبت: «(هذا الفتات الذي دعمتُ به أطلالي) كانت الكلمات تتردد في رأسي حينها. هذا الفتات يعنيني، هذا الفتات هو ما آمنتُ به. لم تبدُ قدرتي على إيجاد المعنى في الطبيعة الشخصية المكثفة لحياتي كزوجة وأم متعارضة مع إيجاد المعنى في اللامبالاة الهائلة لعلم طبقات الأرض»[3].

---

(١) عام التفكير السحري، ص١٧٤.

(٢) نفسه.

(٣) نفسه، ص١٧٥.

على أن تمسكها بغلالة وإن رقيقة من المعنى تُغلّف بها الأحداث، لم يُمكّنها من رؤية أي حكمة أو غاية أو فكرة مضيئة خلف الفقد، ولذا قالت: «لا يمكنني أن أرى الجانب المشرق فيما حدث»[1].

إن الرؤية التي رسختها العقلانية الحداثية تركت أثرها على الإنسان الذي ظل يتخيَّل أنه يمسك بمقاليد كل شيء، وقادر على السيطرة على كل شيء، وأنه وحده المسؤول عما يحدث من أقدار وليس الحظ السيئ أو أي تفسير غيبي أو ما ورائي، وحول هذا الشعور بالذنب تجاه الموت كتبَت جوان: «لم أكن على يقين من أن (الحظ التعس) لم يكن له أي دور في موت جون وطرح كوينتانا-ابنتها المتبناة-في الفراش وحسب، بل كنت في الواقع أؤمن بعكس ذلك تمامًا..كان يجب أن أكون قادرة على منع كل ما حدث.. هذا ما كنت أؤمن به! لم يكن قد خطر لي أن ثمة جانبًا معينًا لم أكن أحمل نفسي المسؤولية فيه إلا بعد رؤية ذلك الحلم التي تُركتُ فيه وحيدة في مدرج مطار سانتا مونيكا. كنت أُحمّل المسؤولية لجون وكوينتانا، فرق كبير لكنه لم ينجح في إيصالي إلى أي مكان»[2].

ولأن فكرة الحياة الآخرة منفيَّة، ولقاء ما بعد الموت مستبعَد لدى جوان، فقد كانت تتقوّى بالذكرى والوجود المتخيَّل لفقيدها، ومع ذلك فلم يكن هذا ليمنحها أملاً باللقاء، بل كما قالت: «كان استجداء حضوره في كل مرة يعزز شعوري بذلك الصمت الأبدي الذي بات يفصل بيني وبينه»[3].

---

(١) عام التفكير السحري، ص١٧٥.

(٢) نفسه، ص١٦٠.

(٣) نفسه، ص١٨٠.

ومن اللوذ بكلمات جون ووصاياه لها، والمعنى الذي ظنت أنها قبضت عليه في علم طبقات الأرض والذي يكرّس اللامبالاة بما يحدث في الكون، ختمت جوان كتابها بكلمات جون لها، والمعنى الذي شكّل رؤيتها منذ سطورها الأولى في الكتاب وانتهت به سطورها الأخيرة، فكتبت: «يجب أن تشعري بتغيّر الموجة. عليك أن تجاري التغيير، أن تتقبليه، أن تتأقلمي معه. هذا ما قاله لي. ما من عين تراقب العصفور، لكن،...هذا ما قاله»[1].

وعلى الضفة المقابلة ومن رؤية مختلفة للعالم، تنظر عائشة عبد الرحمن لفقيدها الذي قضت معه عمرًا عامرًا بالحب، والمشاركة، والتعاضد، وكما كان جوان وجون ديديون يحترفان الكتابة، كانت عائشة عبد الرحمن وأمين الخولي يتشاركان العلم والتعليم، وكما تجرعت جوان غصص فراق جون، نالت عائشة نصيبها من تلك الغصص، ومثلما كانت جوان تستشف معنى حياتها بحضور جون كانت عائشة كذلك، كما في وصفها لأثر غياب الخولي فيمن بقي بعده، بقولها: «وبدت الحياة لتلاميذه أقل جمالاً ونُضرةً من بعده، وأندر شجاعة وحكمة، فكيف عساها تبدو لي، وقد كان هو نبضها وسرّها الأكبر، وكان هو الذي يعطيها قيمة ومعنى، وعلى دروب وجودنا الواحد وحياتنا المشتركة سارت خطاه تشع الدفء والنور وتفجر ينابيع الحب والخير والجمال»[2].

وكما لم تتصور جوان حياتها دون رفقة جون، لم تتمكن عائشة من تصور العيش بعد رفيق عمرها، لكن هذه المشتركات بين الكاتبتين، تأخذ بالاختلاف والتباعد عندما تصل بهما الرؤية إلى مفترق طرق عندما

---

(١) عام التفكير السحري، ص٢٠٨.

(٢) على الجسر، ص١٤٦.

يبرز سؤال المعنى، ففي حين فقدت جوان الأمل بلقاء جون، لم تفقده عائشة، فمن حيث انفجر الألم المزلزل في قلبها نبَعَ اليقين الدافق باللقاء، وبقدرة الله المطلقة، عائشة التي كانت تؤمن إيمانًا لا يتخلله ريب بعناية الله لعباده، وأقداره الحكيمة الرحيمة بهم، لم تشكَّ للحظة في غائية الفقد رغم الألم، فتحت عنوانها المؤثر: (ثم مضى.. وبقيت!) كَتَبت: «وما تصورت قط أني اعيش بعده.. بل كان اليقين أن نتابع رحلتنا معًا إلى الدار الآخرة، وأن ليس على الله بمستبعد أن تتجلى فينا وبنا آيته الكبرى فنمضي معًا كما تجلَّت فينا ولنا في حياتنا الأولى، فكنا الواحد الذي لا يتعدد، والفرد لا يتجزأ»[1].

ومترعة بالمعنى انسابت كلمات ذلك القلب المكلوم الشاكر الحامد، وهو يتلمس الحكمة من المصاب، متسائلاً، ومجيبًا: «كيف مضى وبقيت؟ أهو ابتلاء إيماني ببشرية الإنسان، إذ شهد الموت يغتال من كان يعطي الحياة، ويفيض عليها جمالاً من شجاعته، وحكمته وذكائه وفروسيته؟

اللهم إني ما جحدت قط بشريته، وكل بشر يموت، لكني ما توقعت أن أعيش بعده.

فهل الموت لا يرى فينا إلا اثنين لكل منهما أجله المقدر بالثواني وعمره المحسوب بالأنفاس؟

تلك إذن تجربة نكابدها فيكون منا الحيَّ الميِّت والميِّت الحي، إلى أن ألحَقَ به فيلتئم كياننا طيفًا واحدًا في عالم الأرواح.

ألعلها الحياة أمهلتني ريثما أروي قصتنا على مسمع الزمان تفسيرًا لآية الله العظمى في خلقنا (من نفس واحدة، وخلق منها زوجها)؟ أم

---

(١) على الجسر، ص١٤٦.

لعله القدر أراد أن تكتمل معاناتي لتجربة الحياة فأبلو حزنها الأكبر كما بلوت نعمتها العظمى وفرحتها الكبرى؟»[1].

وإن كان لي من تعليق على ما قالته عائشة، فهو إن الأمل باللقاء في الآخرة هو ما يبقينا أحياء في حقيقة الأمر، وكما قال أبو الوفاء بن عقيل: «لولا أن القلوب تُوقن باجتماع ثانٍ، لتفطَّرت المرائر لفراق المُحبين!»[2].

---

(١) على الجسر، ص١٤٦.

(٢) المنتظم، لابن الجوزي، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، ج٩/ ص١٨٧.

نهايات ..

حين تُفصح الحياة عن كل ما لديها
ولم يَعُد فيها ما يثير الدهشة .. الترقب
الفضول أو الفرح
تأتي الآخرة لتُضفي عليها المعنى
وتُعيد تعريف أشيائها من جديد

ملاك الجهني

يقول محمود درويش: لا أريد من الحب غير البداية!

ويتغنى كثيرون بفتنة البدايات في العلاقات، ولا أجد في البدايات ما يجده الآخرون من فتنة ولهفة وجمال، بل سطحية المعرفة بالطرف الآخر، والبريق قصير العمر لفضول اكتشاف الآخر، وكل ورطات الارتطام بنتوءات شخصيته المجهولة.

وعلى العكس تمامًا يشدني عمق ما بعد البداية وجاذبيته وجذور العلاقة التي تزداد إيغالاً وتشبثًا بالحياة كلما اشتد العطش وحاصرتها عوادي الدهر.. فلا قوة تقدر بعدها على تفكيك أواصر الألفة أو تعيد فصل واستعادة ما انصهر منّا في المناطق المشتركة مع الطرف الآخر.

وهذا ما اجتمع في كتابات الزوجات عن الأزواج، وعن تلك الحيوات المزهرة رغم الأشواك ورغم الغيم ورغم العصف ورغم الفقد..وهذا ما يفسر امتداد تلك الحيوات واستمرارها بالحضور رغم فقدان أحد طرفيها.

ويفسر تضاعف ألم الفقدان ومقاومته الزمن والنسيان، وإن لم تخلُ حياة صاحبه من صفو اليقيـن، والإيمان والرجاء بلقـاء جامع في حياة خالدة.

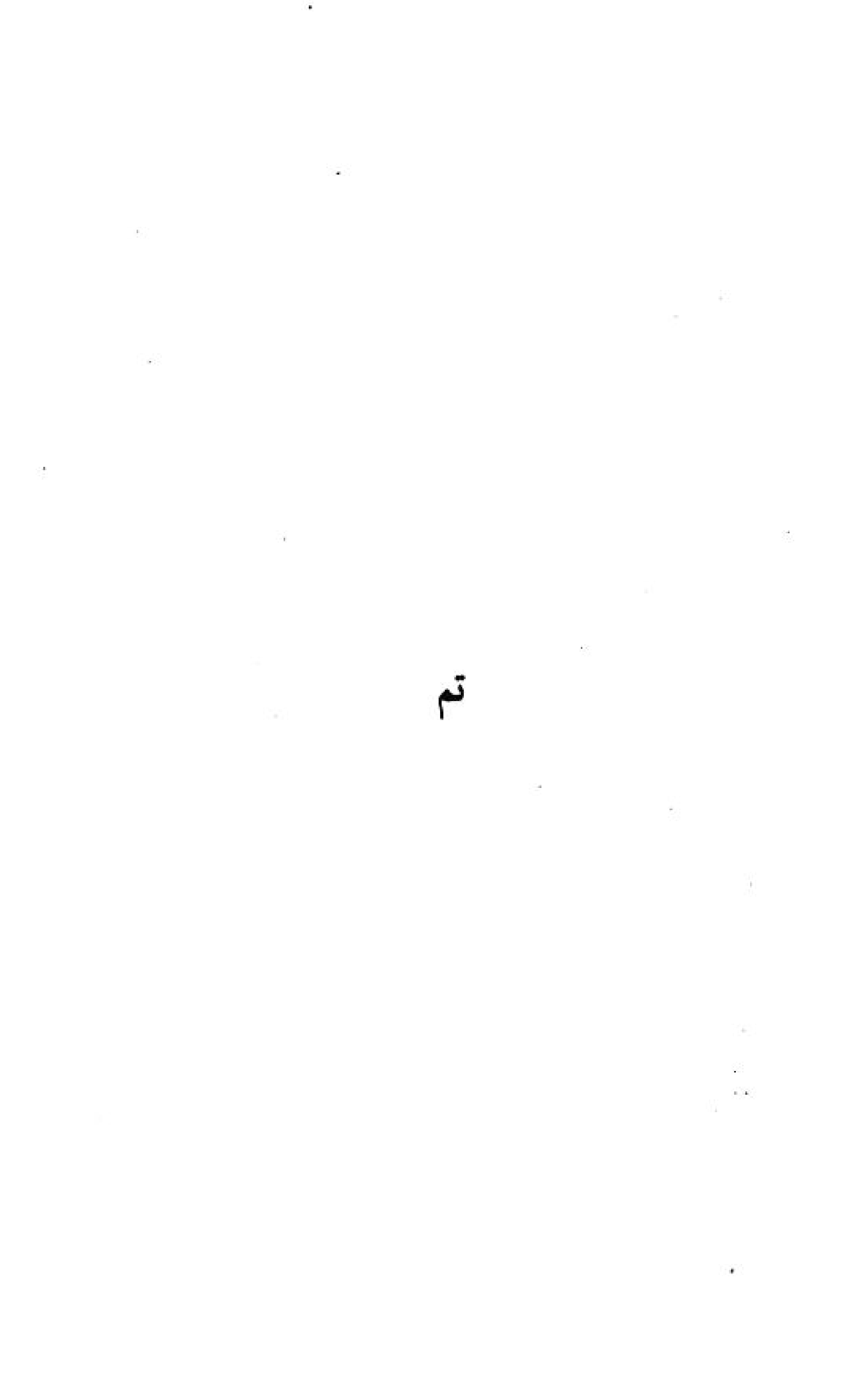
ولما كان الوجدان لا يخضع لسلطة العقل خضوعًا مطلقًا؛ فلا أجدني أتفق مع ما قيل من أن: «العقل ينتصر على المعاناة، ولكن (المتألمين) يرفضون تسـليم مواقعهـم»[1]. كما لا أتفـق تمامًا مع ما نقلـه ابن القيم رحمه الله من قول بعضهم: «من لم يصبر صبر الكرام سلا سلو البهائم»[2]، والذي ينتهي إلى أن الوقت ينتصر على المعاناة.

فمن رحم المعاناة، وتجربة سنوات الفقد أستطيع القول: **إن الإيمان وحده ما يسعه الانتصار على المعاناة مرة بعد مرة، فلا العقل ولا الوقت يحميانا على الدوام من هجماتها الشرسة، لكن الإيمان حتمًا يفعل!**

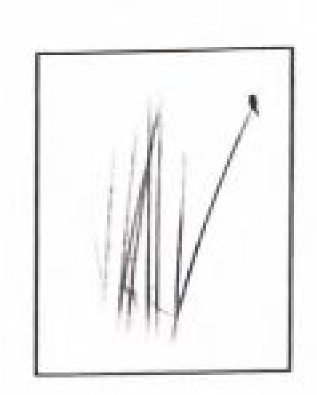
---

(١) قبل شروق الشمس، ميخائيل زوشيكو، ترجمة: يوسف بساليوس، ص٣٥٨.

(٢) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، تحقيق يوسف بديوي، ص٥٢.



تم



عين تراقب العصفور

في أدبيات الفقد و الحداد و الحمد

يترحل هذا الكتاب بين الذاتي والموضوعي، ويتماهى فيه الخط الفاصل بينهما، فيضم بين دفتيه سردًا ذاتيًا للكاتبة حول الوجد والفقد في تجربتها الخاصة، وتجارب كاتبات أخريات تتحاور المؤلفة مع نصوصهن حول أزواجهن حالي الحضور والغياب.

وتنظر الكاتبة إلى الفقد من حيث هو تجربة مركبة لا تنحصر في بعدها العاطفي فقط، فتتوغل في الزوايا المعتمة لهذه التجربة، والتي تخفى في سرد الزوجات، متساءلة عن خفوت الكتابة حول تجربة الفقد في المكتبة العربية من منظور ذاتي لا علاجي.

وحول الأفكار الشائعة عن الحداد والنسيان، وعودة كل شيء لسابق عهده بعد الفقد، والاضطراب الذي يتسبب به غياب الفقيد لمن جمعته بهم رابطة عصية على الانفكاك والتخطي، كما تتساءل حول إمكان عيش حياة جديدة بعد فقد الحبيب، وكيف يغير سؤال المعنى النظرة إلى الموت من حيث هو نهاية حياة بكاملها أو امتداد لحياة أخرى كاملة.

المؤلفة


ISBN 978-603-8406-52-6
9 786038 406526

